
الظل الأسود
تأليف
د / نجيب الكيلانى



1421 هـ ـ 2001 م

* الكتــــاب : **الظل الأسود**

* الكــاتــب : **د. نجيب الكيلانى**

* الطبـــعـــة : الأولى 2001.

* الناشروالتوزيع : **دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا .**

تليفاكس : 3305538 ـ 3321744 / 040
☎ : 2120277 ـ 2120907 / 040

أصالة للتجارة والتسويق ـ الزقازيق

تليفاكس : 353988 / 055

* التجهيز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية ـ المحلة الكبرى

تليفاكس: 2120277 / 040

* الإيداع القانونى: 11743 / 2000

* الترقيم الدولى : I.S.B.N.977 - 278 - 175 - 1

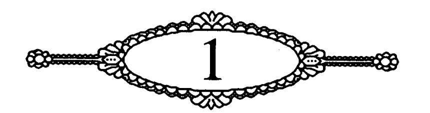
Web Site :www. albashir.com.eg

E-mail:albashira@compu-castle.com.eg



شخصيات الرواية

ـ **إياسو :** امبراطور الحبشة منذ عــام **1913** م (شاب)
ـ **ميكائيل :** والد إياسو ـ مسلم متنصـر ـ حاكم مقـاطعة « وللو » بالحبشة .
ـ **شــو أرقــاش :** زوجــة مــيكائيل وأم إياســو وابنة الامبراطور منليك .
ـ **مالفن :** شقيقة إياسو .
ـ **زوديتـو :** خـالة إياسـو ـ عـينت امبـراطورة للـحبـشـة لفترة .
ـ **غوغسا :** حاكم مقاطعة وزوج الامبراطورة زوديتو .
ـ **الرأس تفرى :** حـاكـم مـقـاطعـة وزوج مـالفن ، عين امبراطوراً للحبشة بعد زوديتو
ـ **زوجة** إياسو الأولى .
ـ **زوجة** إياسو الثانية .
ـ **طباخ تفرى .**
ـ **وصيفات وخدم.**
ـ **الأنبا ميتاوس :** مطران الحبشة فى قترة حكم إياسو .



قال : الشاب « إياسو » فى اشمئزاز بالغ :

أبتى . . إننى أكاد أختنق . لشد ما أكره هؤلاء القساوسة ، إنهم يتحدثون كثيراً عن الله ، وملكوت السماء ، وعن المسيح الذى حمل على كاهله آلام البشر وخطاياهم حتى يحقق لهم الغفران ، لشد ما يخنقنى يا أبتاه أن أرى تلك الأقنعة الزائفة على وجوههم ، إن عيونهم تبرق بالشر وهم يتحدثون عن الرحمة ، ويطنبون فى الكلام عن الاستقامة والخلق القويم مع أن رائحة الخمر تفوح من أفواههم ، ولا يفتأون يرددون عبارات الأخوة والتسامح وبركات الله ، وتاريخهم كله آثام سود ومجون وعربدة ، ومشاجرات بين بعضهم بعضاً . . .

هبَّ الامبراطور الشاب إياسو واقفاً وقد احتقن وجهه الأسمر ، وبان الضيق والأسى فى عينيه ، وهتف فى إصرار :

ـ « لا . . لن أقابل « الأنبا ميتاوس » .

قال أبوه ميكائيل محذراً :

ـ « أى ولدى العزيز إياسو . . لا تنسَ أنك نجاشى الحبشة وامبراطورها العظيم ، ولا تنسَ فى الوقت نفسه أن

«الأنبا ميتاوس» هو مطران الحبشة وصاحب النفوذ الضخم فى أرجاء البلاد . . » .

تنهد إياسو فى حنق وقال :

ـ « لقد برمت بهذا النفاق . . إننى أكرهه . . أكرهه . . »

ابتسم ميكائيل فى هدوء وقال :

ـ « وأنا مثلك . . أكره هؤلاء الأوغاد . . كما أكره اسمى الجديد « ميكائيل » ما أروع ذلك الاسم القديم « محمد على » أيام كنت أحكم مقاطعة « وللو » . . لكن علىّ أن أحتفظ باسمى الجديد حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً . . من كان يظن أن ابن محمد على سيكون إمبراطوراً للحبشة ؟؟ إنه لشىء غريب يا ولدى ، إن الأقدار تلعب دوراً خطيراً . . فلنصبر ولننتظر . . فأنا وأنت الآن ، كل واحد منا يؤمن بالديانة المسيحية . . هذا هو المفروض . . والله ينظر إلى قلوبنا ، ويعرف العقيدة الكامنة فيها . . والآن يجب أن تحسن التصرف . . أتفهمنى ؟؟ فلتسمح فوراً بلقاء « الأنبا ميتاوس » ، وليسمع منك كل ما يطمئن باله ، ويريح فؤاده ، وحذار أن يكشف عن نواياك . . أنا لا أخاف على حياتك أو على حياتى ، بل كل ما أفكر فيه هو أولئك الملايين من المسلمين الذين يسكنون روابى الحبشة وسهولها وقراها ومدنها . . إن هؤلاء أمانة فى عنقك

ستُسأل عنها أمام الله . . يجب أن تضحى بكل شىء من أجلهم يا «إياسو» الحبيب . . هلمَّ . . هلمَّ يا ولدى . . » .

واندفع « الأنبا ميتاوس » نحو قاعة العرش الامبراطورى وكان الجو حاراً والعرق يسيل على جبينه الأسمر ، ووجهه المنتفخ ، وهو يشعر برغبة جارفة فى أن يحك لحيته الكثة التى تناثرت فيها شعرات بيض ، ومع ذلك فقد هرول بأرديته السوداء الفضفاضة الثقيلة ، تلك التى تزيد من شعوره بالحر والضيق ، وما أن وقف قبالة الإمبراطور الشاب « إياسو » حتى هتف فى نبرات خفيفة محاولاً أن تبدو رقيقة ندية :

ـ « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة »

وتمتم إياسو بينه وبين نفسه : « السلام . . المحبة . . يا إلهى ما أشقى بنى البشر حيث يُخدعون بالألفاظ البراقة . . آه . . إنها الكلمات نفسها التى كانوا يرددونها على مسمع من جدى الراحل « الإمبراطور منليك » . . كانوا يملؤون عقله بالترهات ، ويغذون روحه بالحقد ، فيندفع بجيوشه إلى الشمال والشرق والجنوب فيذبح الأبرياء من المسلمين ، ويدمر مساجدهم ، ويقيم على أنقاضها الكنائس والأجراس ، ويحرق القرى المسلمة الآمنة بمن فيها ، ويذبح العلماء ،

ويصادر المواشى والثروات ، ويطرد المساكين من أراضيهم كى يعطيها لجماعات المبشرين . . كل ذلك باسم الله . . باسم السلام والمحبة . . وتدق الأجراس . . أجل . . وتدق الأجراس . . أيها المطران العظيم ، وتعلو الترانيم الإلهية . وتدق طبول النصر ، ويهتف الجلادون على أشلاء الضحايا والشهداء «المجد لله فى الأعالى . . وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة . . » وتنهال البركات على جدى العظيم (الإمبراطور منليك) . . » .

وأفاق إياسو من شروده على صوت المطران يقول :

ـ « مولاى !! ألا تسمعنى ؟؟ »

وهمَّ إياسو أن يبصق فى وجهه ، أو يصرخ به كى يغادر المكان فوراً ، لكن يد أبيه « ميكائيل » ربتت على كتفه فى حنان، فأدرك إياسو الموقف ودقته فقال فى صوت هامس :

ـ « معذرة أيها المطران المقدس . . أشعر بالإرهاق والصداع الشديد . . لقد عذبنى الأرق طوال الليلة الماضية . . تفضل بالجلوس . . » .

ابتسم المطران فى سماحة مصطنعة ، وتمتم :

ـ « إننى أعرفك يا حفيد (منليك العظيم) . . »

دق قلب إياسو فى قلق :

ـ « ماذا تعنى أيها الأب المقدس ؟ »

ـ « إنكم رجال حرب وغزو . . ، وإذا خرجتم عن هذه السياسة داهمكم الأرق ، وتناوشتكم الآلام والأعراض . . إن بعض الإمارات الإسلامية قد رفعت رأسها من جديد ، وبعض القبائل الوثنية فى الجنوب اعتنقت الإسلام . . ».

ثم أخرج المطران من جيبه لفافة ضخمة من الأوراق ، أخذ يقلب فيها ، ثم قال :

ـ « ومعى إحصائيات كاملة بعدد المساجد التى لابد من هدمها ، وكذلك بعض المدارس « والكتاتيب » التى تعلّم القرآن واللغة العربية والآداب الإسلامية . . ومعى أيضاً قوائم بأسماء العلماء والرجال الذين يوجهون هذا النشاط الخطر ، ومجلس الكنيسة الأعلى قرّر استئناف الحملات التأديبية ضد هؤلاء جميعاً . . يجب أن تستأنف الحرب التى شنها جدك منليك ، ولا تلق السلاح حتى تقضى على آخر أمل يخفق فى قلوب هؤلاء المسلمين الكفرة التعساء . حلفاؤنا الغربيون من طليان وإنجليز وفرنسيين على استعداد لمدك بكل ما تحتاج إليه من سلاح وخبرات . . إنهم إخواننا فى العقيدة . »

تقاطر العرق على جبين إياسو الأسمر ، وتمتم وهو يغالب عواطفه الجياشة :

ـ « أليس هناك طريق غير الحرب ؟؟ »

ـ « أثبتت الحوادث التاريخية المتتابعة أنهم لا يرضخون إلا لحكم السيف . إن عنادهم ، وتشبثهم بعقيدتهم فوق الطاقة . . إننى أحمل إليك ما استقر عليه رأى القساوسة والرهبان وحلفائنا الغربيين . . ثم إنها الخطة نفسها التى سار عليها جدك العظيم منليك . . » .

وتمتم إياسو دون وعى :

ـ « . . وعلى الأرض السلام . . »

وضحك المطران فى أدب :

ـ « لا يكون السلام إلا بعدما يعود المارقون المسلمون إلى حظيرة الرب » .

وعاد إياسو إلى شروده وغمغم :

ـ « . . وبالناس المسرة . . »

أردف المطران :

ـ « لا مسرة إلا بالنصر على هؤلاء الأوغاد . . عندئذ تدق الأجراس فى صفاء ، وتعلو الترانيم الحلوة فى الوهاد والروابى والغابات الشاسعة . . وتصبح الحبشة أرض الرب . . أرض يسوع المخلِّص . . »

هز إياسو رأسه ، ثم قال :

ـ « حسن . . أهناك مطالب أخرى ؟ »

عبث المطران بأوراقه وقال :

ـ « إن المجلس الأعلى للكنائس فى حاجة إلى قدر كبير من المال » .

ـ « لماذا ؟؟ » .

ـ « لإصلاح حالهم . ونشر رسالة الرب . وبناء بعض الكنائس . . » .

ـ « لكن مدخرات الدولة لا تكفى الحرب والكنيسة . . » .

« إنهما شيء واحد أيها الإمبراطور العظيم . . ثم إن مزارع المسلمين وقراهم مليئة بالخيرات ، حيث الزرع والضرع وخيرات الأرض الطيبة ، فما عليك إلا أن تصدر أمرك بفرض الضرائب الجديدة ، ولسوف يؤدونها وهم صاغرون . . » .

هبَّ الإمبراطور واقفاً ، وتصنع الابتسام قائلاً :

ـ « لسوف ننظر فى هذه الأمور جميعها »

قال المطران فى هدوء :

ـ « كان جدك منليك لا يرفض طلباً للكنيسة . . » .

ـ «أعرف ذلك . . » .

ـ « وما نظنك إلا سائراً على نهجه القويم . . » .

تمتم إياسو :

ـ « كن مطمئناً أيها الأب . . لن أحيد عن النهج القويم . . لقد وهبت نفسي لله . . » .

انفرج فم المطران عن ابتسامة عريضة ، وقال :

ـ « إن ظننا فيك لم يخب . هذا ما توقعناه » .

بعد أن خرج المطران ،بقى إياسو قابعاً فى مكانه ، ورأسه يدور ، وعيناه تحملقان دون أن يرى شيئاً حوله . . إنه طائر بخياله إلى بعيد . . حيث القرى الآمنة ، والزرع الأخضر ، والأطفال الصغار يمرحون ويهزجون بأغانى الحياة الحلوة الشجية ، والسلام ينشر ظله الوارف على الربوع المترامية الأطراف ، والأحلام الطيبة تداعب القلوب ، وتنعش الأرواح . . وفجأة تثب إلى ذهن إياسو صورة أخرى مناقضة للصورة السابقة تمام المناقضة . . حشود كالوحوش تهجم بسيوفها ونيرانها . . تريق الدماء ، وتحرق الأخضر واليابس ، وترتفع ألسنة اللهب مجنونة هادرة . والدخان الأسود يملأ الآفاق ، ويعمى العيون . . والصغار يصرخون ، والحمائم البيض تفر مذعورة أمام الهول الشيطانى . . يا إلهى لمَ كل هذا ؟ وبأى حق ؟ . . المحبة ، السلام ، المسرة . . الرحمة . .

وصرخ إياسو وقد انهمرت الدموع من عينيه :

ـ « إنهم يكذبون . . إنهم يكذبون . . هؤلاء الوحوش . . »

أمسك أبوه بذراعه فى رفق وهتف مذعوراً :

ـ «ماذا جرى لك يا إياسو المسكين . . »

ـ « هذا التاج ثقيل يا أبتى . . أولئك المتعصبون يريدون أن يسوقوننا إلى الجحيم . . مستحيل . . إنهم يكرهون الإنسان . . ويمقتون حرية البشر . . » .

ثم أدار إلى أبيه وجهاً بللته الدموع الغزار وقال فى أسى :

ـ « هل من الضرورى أن يساق الناس إلى طريق الله بالسيوف والسياط ؟؟ وهل هذا هو طريق الله فعلاً ؟؟ إن الله لاشك يكره القهر والدمار وعذاب الأبرياء . . خبِّرنى يا أبى : لماذا انتصر جدى منليك ؟؟ لشدّ ما أكرهه !! كيف ينتصر الأشرار ؟ إننى لا أكاد أفهم حكمة الله . . إننى جاهل دَعىّ . . عاجز ، مقهور . . ليتنى كنت راعياً للأغنام . . راعياً بسيطاً يشرب ألبانها ، ويمرح بين قطعانها ، بعيداً عن هذا الهول والعذاب . . » .

وصمت برهة ، وهمّ أبوه بالكلام ، لكن إياسو اندفع قائلاً :

ـ « أخبرنى يا أبى . . أكان محمد ـ ﷺ ـ يرعى الأغنام ؟ »

ـ « أجل » .

ـ « ولماذا تركها ؟؟ » .

ـ « ليرعى البشر بعد أن تاهوا فى الظلمات . . » .

ـ « وهل فعل كما فعل جدى منليك ؟؟ » .

صرخ ميكائيل كمن لدغته حيّة :

ـ « حاشا لله يا ولدى . . استغفر ربك ، لم يرفع محمد سيفه إلا فى وجه معتد على الحرمات . ولم يحرق معبداً ، أو يكره إنساناً على اعتناقّ دينه . . كان يردد آيات القرآن . . ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ كان محمد يدعو ويهدى إلى الطريق الحق ، ويحنو على الناس من كل لون وجنس . . كان . . » .

أمسك إياسو بكتفى أبيه ، وسدَّد إليه نظرات والهة :

ـ « ولماذا تركت دينك ؟؟ لماذا ؟؟ إنه لشىء رهيب !! أجبنى وإلا قتلت نفسى . . إنه لأمر يعذبنى . . وأنا أحبك . . أنت أبى . . قل لى : لماذا تحولت من « محمد على » إلى «ميكائيل»؟؟

أفلتت دمعة من بين أهداب الشيخ العجوز ، وبدا وجهه

المليء بالأخاديد والندوب كئيباً بائساً وقال :

ـ صدق الله العظيم ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾

وجفف دمعته ثم قال :

ـ « رأيت إخوانى وأصدقائى يذبحون أمام عينى . . كنت أسمع صراخ الآلاف حول بيتى يصم الآذان . . وجنود جدك الامبراطور منليك الحاقد ينشرون الرعب والموت فى كل مكان . . وخيّرت بين ترك دينى أو القضاء على المقاطعة بأسرها . . كنت يا ولدى الحبيب إياسو على استعداد لأن أقذف بنفسى وأسرتى إلى الجحيم حتى أنقذ هؤلاء المعذبين . . ثم ما هى العقيدة ؟ هل هى شىء يلفظ به اللسان أو يختلج به القلب ، هل هى كلمات وطقوس أم سلوك وفكر ؟ . . أحسست أن الله لن يغضب علىّ . . قبلت عرض جدك كى أفدى التعساء . . . وقبلت الزواج من أمك « شو أرقاش » ابنة « منليك » . . إن أباك لم يكفر بالله ولم يترك إسلامه . . كنت أختفى عن العيون وأؤدى صلاتى واستغفر الله . . آه . . لو كان الأمر يخصنى وحدى لما ألقيت سلاحى قبل أن ألقى الله شهيداً مع إخوانى الأبطال . . تلك قصتى باختصار . . وأنت تسمعها للمرة المائة . . وأهالى مقاطعة « وللو » الإسلامية التى كنت أحكمها يعرفون المأساة . . آه . . لقد مزقنى العذاب والضياع سنين

طويلة . . وها أنت تعيدنى إلى المأساة الحزينة . . لقد صبرت طويلاً حتى تبلغ كرسى الحكم وتصبح نجاشى الحبشة . . والآن يمكننا أن نبدأ من جديد . . أن نصلح ما أفسده القهر والتعصب . . » .

هز إياسو رأسه وقال :

ـ « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . » .

ـ « هنيئاً لك . . لكن يجب أن تكتم إيمانك إلى حين . . » .

ـ « سأعلنه على الملأ . . فإما أن أنتصر أو أموت دونه . . »

ـ « أيْ ولدى . . لا تحاول قطف الثمرة قبل أن يكتمل نضجها ، ستكون فجَّة مُرة المذاق . . ومستقبل ملايين المسلمين أمانة فى أيماننا . . أذكر هذا ولا تقع فى حبائل الاندفاع . . » .

وصدر من خلفهما صوت يعرفانه جميعاً ، إنه صوت زوجة إياسو :

ـ « لقد حان وقت الغداء » .

قال إياسو دون أن يعطيها وجهه :

ـ « لسوف نلحق بك بعد قليل . . » .

وسمعا وقع خطواتها تبتعد ، وهمس إياسو :

ـ « هذه الملعونة لشد ما أكرهها ، إن مدارس المبشرين قد

طبعتها بطابع ملعون متعصب . . » .

ـ « لكنها وادعة وهى تحبك . . » .

ـ « ان هدوءها الظاهرى يخفى وراءه عربدة وانحرافاً لا مثيل لهما . . » .

ـ « هيا بنا . . » .



جلس إياسو ساهماً يفكر . . ؛ لم يخفَ على زوجته الفاتنة السمراء أنه يعانى من شىء يخفيه عنها ، فهو قلما يبتسم أو يداعبها مثلما كان يفعل أيام الزواج الأولى ، ترى ما الذى حدث له ؟؟ لم تعد تطيق ذلك ، ويحه !! أتراه يفكر فى امرأة غيرها؟؟ هذا هو عيب الملوك . إن سلطانهم لا حدود له ، ونساء كثيرات يهمن بهم حباً ولهفة . والتيجان تسبى عقول الغانيات ، وإياسو شاب مليح ، بالإضافة إلى ذلك كله ما أكثر التماثيل والصور الماجنة التى كانت تكتظ فى قصور أباطرة الحبشة . ولم لا ؟! الرهبان والآباء المقدسون أنفسهم قد يرتكبون الحماقات ، وقد يتصارعون ويريقون الدماء من أجل امرأة جميلة ، هذا على الرغم من تشبثهم بأذيال الدين ، وعلى الرغم من تقدمهم فى السن ، فهل يستبعد أن يقع إياسو فريسة لامرأة لعوب ؟! تُرى مَن تكون هذه المرأة ؟؟ .

وأخذت زوجة الإمبراطور تشتط فى أحلامها هنا وهنا ، والغيرة تلهب كيانها كله . وما قيمة التاج والصولجان إذا ما فقدت سيطرتها على قلب « إياسو » ؟ إنها أنثى قبل أى شىء ، وإياسو يجب أن يكون لها وحدها ؛ آه لو علمت أية امرأة تلك

التى لعبت بقلب زوجها إذن لسقتها السم لتوها ، ولأراحت نفسها من عذاب الغيرة ، وأشباح الأرق التى تقلب نومها إلى جحيم لا يطاق . . لكنها لن تسكت ، لسوف ترصد لزوجها العيون ، وتتبع حركاته وسكناته حتى تلم بأخباره . . ولسوف تستعين بخبرة المطران . . الأنبا ميتاوس ذلك الأب الذى بارك زواجهما ، والذى ألقى عليها عديداً من النصائح والعظات قبل الزواج ، فهى تذكر جيداً حين قال لها « ميتاوس » ذات يوم :

ـ « لسوف ترتبطين بامبراطور الحبشة ارتباطاً مقدساً لا ينفصم . . تلك مشيئة الله يا ابنتى . . ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تفرق بينكما . . ولا تنس الدروس التى تلقيتها فى مدارسنا ، إن الحبشة أرض الله ، ويجب ألا يدنسها مسلم ، والخلاص من المسلمين يحتاج إلى إمبراطور أشد مراساً ، وأشرس قلباً من «منليلك » ، ولقد شاءت الأقدار أن يقع هذا العبء على « إياسو » فكونى عوناً له على تنفيذ مشيئة الله ، وحاذرى أن يقع فريسة الوهن ، أو يستسلم للراحة والنعيم ، وإلا ضاعت آمالنا فى تطهير الديار من أعداء الله ». .

تذكرت زوجة الإمبراطور كل ذلك ، وها هى ترى قلب إياسو ينأى بعيداً عنها ، إنها لم تزل زوجته أمام الناس ، لكن قلبه يبعد عنها آلاف الأميال ، هذا ما تشعر به ، لقد كان

ميتاوس مخدوعاً حينما تصوَّر أن أية قوة فى الوجود لا تستطيع أن تفرق بينهما . نسى المطران أن اللقاء الروحى شىء آخر غير اللقاء الجسدى ، وأنه لا قيمة للرباط المقدس المزعوم إذا تنافرت القلوب . . إنها لم تزل زوجته ، لكن أين الشىء الكبير العظيم الذى يجعل من الزوجين كائناً يكاد يكون واحداً ؟ لم تستطع الصبر ، و أقبلت على إياسو والقلق يلهب فؤادها بسياط لا ترحم وقالت فى مسكنة :

- « ما الذى بك يا حبيبى ؟؟ » .

رماها بنظرات محتقنة بائسة وقال :

- « لا شىء . . » .

قالت وقد جثت على ركبتيها فى ذلة :

- « أى إياسو . . أنا زوجتك فحرام أن تخفى عنى شيئاً . . هل حدث ما يبغّضنى إليك ؟ . . تكلم بحق السماء ، إننى على استعداد لأن أفعل ما تأمرنى به حتى تنجاب هذه الغمة » .

رق قلبه لحالها . . وأثرت فيه دموعها التى لم تنسكب بعد وإن لم يزايله ذلك الشعور الداهم الذى يوحى إليه بأن قلبيهما بعيدان بُعد السماء عن الأرض ، لكن كيف يفجعها فى أعز ما تحيا له امرأة .

قال إياسو ساخراً :

ـ « مجلس الكنيسة الأعلى يريدنى أن أشعل الحرب ، وأخرج فى جيشٍ جرار للقضاء على القبائل والمقاطعات الإسلامية . . » .

تمتمت فى حسرة :

ـ « أهذا كل شىء ؟؟ » .

ـ « أجل . . » قالها فى حزم واقتضاب ، وهو يعلم أنه لم يفصح لها عن كل ما فى قلبه ، لكنه كان مضطراً لأن يفعل ذلك حتى لا يحطم كبرياءها ، أو يزيد من نكدها ، وكان يقصد من ناحية أخرى أن يستمع لما تقول بشأن ذلك الأمر الخطير . . قالت الإمبراطورة الصغيرة :

ـ « لكنى أريدك إلى جوارى » .

ـ « كيف ؟؟ أنعصى أمر الكنسية ، ونضرب عرض الحائط بتوصيات الأنبا ميتاوس ؟؟ إنه لشىء خطير يهدد سلطاننا . ويزعزع أركان الكرسى الذى أجلس عليه ، وقد ينزع التاج من فوق رأسى ، وأنت تعلمين ذلك ، ترى هل أطيعك أم أطيع الأنبا ميتاوس ؟؟ » .

خفضت رأسها فى حيرة ، ثم قالت :

ـ « ليذهب الجيش لمحاربة المسلمين ، ولتعين له قائداً تثق به، ولتبق أنت إلى جوارى . . » .

قهقه ساخراً وقال :

ـ « إن الإمبراطور الجديد يجب أن يثبت إخلاصه لله وللكنيسة . . . وذلك فى أن يكون على رأس الجيش ، وأن يقدم القرابين . . أتفهمين ؟؟ القرابين من دماء البشر . . » .

قالت : « المسلمون ليسوا بشراً . . إنهم أنجاس كفرة ، ومع ذلك فقد أتتنى فكرة ، لتذهب على رأس الجيش ، ولأكن معك . . لا أريدك أن تفترق عنى . . ثم إن بى شوقاً جارفاً لرؤية تلك المشاهد التاريخية الرائعة . . أن أرى جوادك الفارع يطأ جثث هؤلاء العبيد المارقين . . » .

. . . إنها سافلة ملعونة مثلهم ، حسبتها تكره الحرب لأنها العدوان والوحشية والظلم ، فإذا بها لا تفكر إلا فى نفسها ، وفى المشاهد الحمر التى تثلج فؤادها ، إنها لم تزل تعيش فى المستنقع الآسن الذى يلغ فيه المتعصبون من رجال الدين والكنيسة وعلى رأسهم الأنبا ميتاوس ، وكظم غيظه وقال :

ـ « ولماذا نقتل المسلمين ونسبى نسائهم ونحرق قراهم ؟ » .

ـ « لأنهم ليسوا على حق . . » .

ـ « وهل فعل المسيح ذلك بمن خالفوه فى الرأى والعقيدة»؟

ـ « لا أدرى . . » .

فصرخ إياسو محتداً :

ـ « بل تعرفين ، ولكنك تخدعين نفسك . . » .

ـ « الأنبا ميتاوس ورجال الكنيسة يعرفون أكثر مما نعرف . . » .

ـ « المعرفة أيتها الغبية ليست حكراً على مجموعة بعينها ، هؤلاء القساة الطامعون من رجال الكنيسة يرسون قواعد دين جديد كله على اختراع وانحراف من صنع أذهانهم وأحقادهم ، الفاشلون وحدهم هم الذين يسوقون الناس بالسياط والسيوف إلى حظيرة رأيهم . . لو كانوا على حق لتدافع الناس طواعية وبدون قهر إلى الطريق الحق . . أنتم لا تقرأون الأناجيل . . بل توصيات القساوسة وأوامرهم هى الأناجيل الجديدة . . » .

قالت الزوجة :

ـ « أكاد لا أفهمك يا إياسو » .

ـ « لكن كلماتى واضحة . . » .

ـ « واضحة ، لكنها تخالف العرف الذى درجنا عليه . . »

ـ « العرف . ها . . ها . . ها أنت تعيشين فى سجون التصورات الباطلة كما يفعل الأنبا ميتاوس وحاشيته . . يريد أن يبقى فى الكنيسة يرتل الأناشيد ، ويتلو الصلوات ، ويزجى

النصائح تحت دقات الأجراس الصاخبة ، وأنا أخوض هناك برك الدمع ، وحقول النار والشوك والدماء . . أنا أتعذب والقساوسة الموقرون يأكلون ويشربون ويخادعون النساء ، وينهبون أموال الدولة باسم الأب الممجد . . » .

وصمت برهة ، ثم عاد يقول :

ـ « لماذا لا نحطم جدران ذلك السجن الرهيب الذى أقامه المتهوسون فى عقولنا ؟؟ لماذا لا نعيد التفكير من جديد ، ونناقش الأمور دون حكم مسبق ؟ ! ألا يمكن أن نكون على ضلال وعدونا على حق . . » .

صاحت فى دهشة :

ـ « مستحيل . . لا يمكن أن يكون المسلمون على حق . . »

ابتسم إياسو ابتسامة ، ثم سدّد إليها نظرات حانقة ، وقال :

ـ « زوجتى المسكينة إننى أحتقرك . . » .

ارتجفت رجفة مباغتة وقالت :

ـ « ماذا ؟؟ » .

ـ « لأنى أحتقر العبيد الذين تسيرهم أهواء الآخرين . . . »

وأشار إلى قلبه بإبهامه وقال :

ـ «تحرير الروح من هنا . . من القلب . . ».

ثم أشار إلى رأسه :

ـ « وتحرير الفكر من هنا . . من العقل المحايد ، الذى يلقى بتعصبه ومخاوفه إلى الجحيم . . عندئذ تنتصر المبادئ بلا سيوف أو دماء . . أى زوجتى المسكينة ! إنك ضحية مثل أولئك المسلمين التعساء تماماً . . هم تراق دماؤهم بسيف البغى . وأنت تراق إنسانيتك بسيف الوهم والتعصب ونصائح الرهبان والقساوسة . . » .

قالت وقد سددت إليه نظرات ذات معنى :

ـ « إياسو » .

ـ « نعم . . » .

ـ « إما أنك مريض أو أفرطت فى الشراب » .

ـ « ما الذى يدعوك لهذا القول يا زوجتى ؟؟ » .

ـ « أنت تنحاز إلى جانب المسلمين وتدافع عنهم . . »

وعاد يقهقه ساخراً :

ـ «إننى ملكٌ على الجميع يا زوجتى ، ويجب أن أنشر العدل بين الرعية كافرهم ومؤمنهم ، وفقيرهم وغنيهم . . هذا كل ما فى الأمر . . » .

وران عليهما صمت مطبق .

نسيت الزوجة كل ما كان يفكر فيه زوجها ، لم تعد تذكر سوى كلمة واحدة أثارت النار فى قلبها وجسدها ، فصَاحت والدموع تغرق عينيها :

ـ « تقول أنك تحتقرنى ؟؟ » .

ـ « معذرة يا زوجتى ، لم أكن أقصد ذلك بالضبط . . فقد أردت أن أسفِّه تلك الأفكار الخاطئة التى ألحَّ بها معلمو التبشير على فكرك حتى مسخوه مسخاً مثلما حاولوا معى تماماً . . » .

وقالت وهى تجفف دموعها :

ـ « إذن فأنت لا تحتقرنى . . » .

ـ « أهذا هو كل ما يهمّك ؟؟ » .

ـ « بالطبع . . » .

ـ « يبدو لى الآن أن احتقار الآخرين خطيئة لأنهم بشر من خلق الله . . ومع ذلك فإن هناك كثيراً من الألفاظ نتفوه بها تنفيساً عما يغلى فى أعماقنا ، إنها مجرد انفجارات عمياء لأنها لا تحمل كل المعنى الذى نريد . . » .

ابتسمت . وسرت حمرة فى وجنتيها ، وقالت وعيناها إلى فراش النوم :

ـ « لا أفهم الكثير مما تقول ، لقد أصبحت فيلسوفاً يا

زوجى . . إننى أشهد لك بذلك . . ومن رأيى أن نكتفى بهذا القدر . . آه لشد ما أنا مشتاقة إلى النوم » .

ثم عادت تقول وهى تجذبه من ذراعه :

ـ « حسبت أن هناك امرأة أخرى توشك أن تخطفك منى »

قال وهو يتنهد :

ـ « إن أحلامك لا تزيد عن هذا السرير اتساعاً » .

ـ « ولم أحلم بأكثر من ذلك . . إنه يتسع لاثنين . . » .

قال إياسو وهو يخلع عنه ملابسه :

ـ « هناك كثير من الأشياء نفعلها تلقائياً دون أن نفكر فيها ، إنها تشبه إلى حد كبير التنفس . . والأكل والشرب . . والمشى . . »

ـ « ماذا تعنى بالضبط ؟؟ » .

ـ « أعنى إن ميتاوس يريدنى صورة طبق الأصل من جدى منليك . . إنه يريد كل يوم أجراساً جديدة تدق . . وكنائس تقام ، ومساجد تهدم ، وحرائق تشعل . . لقد أصبح ذلك أمراً عادياً لا يثير أية غرابة . . تماماً مثلما تفكرين فى السرير الذى لا يتسع إلا لاثنين . . . » .

وعندما صمت قالت :

ـ « لم أستمع إلى أى شىء مما تقول ، إن فلسفتك لم أعد

أستطيع هضمها . . هيا ودعنا نفكر فى شىء آخر . . ».

تمتم وهو يهز رأسه :

ـ « شىء آخر . . الهروب . . تريدنى أن أفكر فقط فيما تفكر هى فيه . . يا وعاء الأنانية القذر . . يا مقبرة النظر . . يا نتاج الحقد الأعمى والتربية العقيمة وانحراف المبشرين . . شىء آخر ؛ أيتها الكتلة من اللحم والشحم والدم . . تتحدثين عن ذبح الأبرياء ببساطة . على أنه لو خدش أصبعك اللون المرن لملأت الدنيا نحيباً وبكاء . ولتكاثر الأطباء على بابك . . ولانهالت برقيات الاستفسار على قصرك ولتوافد السفراء وقريناتهم ليقدموا فروض الطاعة والولاء . . كان محمد راعياً للغنم ، وكان يأنس بالفقراء والمساكين والحائرين . . وكان يقول للطغاة الذين حاربوه ، وقتلوا الكثيرين من رجاله . . اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء . . هكذا حدثنى أبى . . آه أيتها المسكينة . . دعنا نفكر فى شىء آخر . . بل نفكر فى أنفسنا . . نقذف بها فى هوان الأنانية والهروب . . ».

وجاءه صوتها :

ـ « فيمَ تفكر ؟؟ لقد أعددت السرير تماماً ، وضمخته بالمسك . . وأطلقت البخور . . ألا تشم ؟؟ ثم ما رأيك فى ذلك القيمص الحريرى الأزرق . . . » .



قالت « شو أرقاش » لزوجها « ميكائيل » ذات صباح :

ـ « إن ولدنا الإمبراطور يعانى من محنة نفسية قاسية . . »

فردَّ عليها :

ـ « دعيه يا امرأة لسوف ينضجه الألم العظيم . . » .

ـ « إنه الإمبراطور ، ومن حقه أن يطلب فيجاب ، فلم كل هذا العذاب الذى يفترسه افتراساً ؟؟ » .

إن ميكائيل يعلم الحقيقة المرة ، لقد تمزق ولده بين دروس المبشرين ، وإسلام أبيه المخبوء ، بين التقاليد والقيم التى عاش فى رحبها فى قصر جده منليك ، وبين الهمسات والتوجيهات الخفية التى حرص أبوه على أن يبثها فى وجدانه ، وزاد تمزقه حدة بعد أن أوصى جده ـ الذى لم ينجب ولداً ـ أن يتسلم إياسو مقاليد الحكم فى عرش الأباطرة بالحبشة ، إنه أمام الجميع ملك مسيحى يسنده رضاء القساوسة ومنشورات المطران الأكبر ، وأمام الله رجل مسلم يشعر بفداحة الأعباء التى حملتها له الاقدار . وهو بين أن يعلن إسلامه فتثور الكنيسة ، وتموج البلاد بالفتن ، وبين البقاء ظاهرياً على عقيدته النصرانية فيحيى

بوجـهين ، ويتكلم بلسـانين ، ويصلى فى الكنيسـة بطريقـة تختلف تماماً عن الطريقة التى يصلى بهـا وحـده أو مع أبيـه ، وليت الأمـر يقف عند هذا الحـد ، إن هذا التـمـزق الفكرى والنفسى ، سينعكس أثره فى تصرفاته ، وبالتالى فى جماهير شعبه . . إنه مستقبل أمة تعد بالملايين ، وفى فترة تاريخية حرجة ، فهناك أول حرب عالمية على الأبواب ، تركيا وألمانيا فى جانب ، وإنجلترا وفرنسا ومعظم الدول الغربية فى جانب آخر ، والغربيون المستعمرون قد ألقوا برحالهم على شاطىء البحر الأحمر ، وعقدوا الصلات الوثيقة مع جده منليك ، ومع القساوسة ورؤوس المقاطعات ، إن الأفق من حوله يموج بعديد من التـوقعـات والأسـرار الغـامـضـة . ورجـال الكنيـسـة لهم مطالب ، والطليـان والفـرنسيـون والإنجليـز هم الآخـرون لهم مطالب ، وشعبه ينتظر منه الكثير ، وهو نفسه يريد قاعدة صلبة يرتكز عليـهـا كى يسـيـر فى الطريق الشـائك الذى تكتنفـه الظلمات ، ولم يعد خافياً على الجميع أن الامبراطور الشاب إياسو يقع تحت صراع نفسى رهيب يوشك أن يجلب له الانهيار الكامل .

قالت « شو أرقاش » ابنة منليك :

« لو كنت مؤمناً حق الإيمان يا ميكائيل لاستجاب الله لك »

وأدرك مـحـمـد على « مـيكائيل » أنهـا تُعـرض بضـعف

عقيدته، وأن تنصّره ما زال موضع شك ، وأنه هو الذى أورث ولده هذه البلبلة ، والتمزق .

قال ميكائيل :

ـ « الرب واحد يا شو أرقاش أيتها العجوز اللئيمة . . »

ـ « يعلم الله أننى أحببتك من كل قلبى . وحاولت جاهدة أن أجعل أبى منليك يعطيك كل ما تصبو إليه ، ويجعلك محل ثقته ، وهل هناك أكثر من أن يوصى بالملك لابن رجل مسلم عريق فى إسلامه ؟؟ لقد كان أبى رحمه الله يحب حفيده إياسو حباً جنونياً . . لقد استطاع قبل موته أن يكسر مقاومة حكام المقاطعات ، ويقطع الطريق على اعتراض مجلس الكنائس الأعلى . . إن أبى لم يشك فيك لحظة ، أما أنت فكنت ترمق ذلك كله بعينى ذئب . . أنسيت يوم أن اعترضت على زواج ابنتنا « مالفن » من « الرأس تفرى » حاكم ولاية سيدامو ؟؟ لقد كنت تفضل أن تبقى ابنتك عانساً على أن تزوجها من مسيحى متعصب حقود على حد قولك . . أكنت تريد أن تزوج حفيدة منليك وأخت إياسو لرجل مسلم ؟؟ » .

قال ميكائيل :

ـ « لم أقصد ذلك بالضبط ، لكنى لا أثق فى ذلك القاسى القلب الرأس تفرى ، إن فى عينيه خبثاً ودهاءً مخيفين . . إنها

مجرد مشاعر قوية لا أستطيع الهروب منها ، ولولا ضغط منليك ، وخوفي من المشاكل التى قد تنجم عن عدم إتمام زواج «مالفن» من «تفرى» لما وافقت . . ما أكثر ما يفعل الإنسان أشياء لا يرضى عنها قلبه . . » .

وأقبل « إياسو » باش الوجه ، منطلق الأسارير ، وقال وابتسامة الرضا ترتسم على شفتيه :

ـ « صباح الخير يا أمى . . صباح الخير يا أبتاه . . »

تحاملت الأم على نفسها وهبت واقفة ، والسعادة تغمر قلبها ، وهتفت :

ـ « ها أنت تضحك أخيراً . . ما أسعد قلبك يا (شو أرقاش) . . إن إمبراطورى الحبيب يبسم لى . . تصور . . أن طلعتك الفاتنة تذكرنى بجدك منليك . . إنك شبيه به لدرجة ملفتة للنظر » .

قهقه ميكائيل ساخراً وقال :

« أنظرى جيداً . . إنه صورة منى . . ألا تذكرين ؟؟ كنت تضمينه إلى صدرك وهو طفل ، وتغرقين وجهه بالقبلات ، وتقولين إنه يشبهك تماماً يا ميكائيل ولهذا فأنا أحبه . . يبدو أن بصرك قد ضعف ، وحكمك على الأمور قد اختل . . » .

قالت شو أرقاش غاضبة :

ـ « لمَ هذا التعصب ؟؟ أحرام أن أشبهه بجده العظيم فى سمته وابتسامته . . إنك تحاول قدر طاقتك أن تنكر أثرى وأثر جده فى وجوده . . ».

ـ « لا أنكر ذلك الأثر ، ولكنى لا أقبل التصورات المتعسفة ، إن ملامحه التى تشبه أبيه ، لا تعنى تجاهل أمه وجده . . إنه مدين لكما بالكثير . . بوجوده أولاً . . وبهذا العرش ثانياً . . ».

وصمت إياسو ، كان يستمع إلى نقاشهما الحاد ، وهو بينهما يبحث عن شيء ينتمى إليه . . لا . . لا . . لقد استقر باله ، وبلغ مرحلة الانتماء بعد عذاب وضنى ، وما كان الانتماء لمجرد الأب والأم ، إنه ـ حسبما يعتقد إياسو ـ يرتبط بالمبدأ والعقيدة ، إن الانتماء قيمة كبرى تفوق النسب والصلات الظاهرية ، لم يعد نسبه محل شك . . إنه ابن محمد على المسلم وابن شو أرقاش المسيحية . . ليكن . . أما الأهم من ذلك فهو الانتماء الروحى والنفسى والفكرى ، فرب لقيط مجهول النسب يستشعر نسمات الراحة والرضا النفسى حين ينتمى لشيء كبير . . تلك هى المشكلة . . وهز إياسو رأسه وقال :

ـ « كان منليك جدى . . وهذه حقيقة . . ولاتزعجنى أخطاؤه . . فهى له ، وحسناته أيضاً له . . إن ذلك شيء بينه

وبين الله . . وميكائيل أبى سواء أكان مسلماً أو نصرانياً . إننى خلق جديد . . هذا ما أريد أن أقوله . . » .

وتدخلت أمه قائلة :

ـ « وأنا ؟؟ تحدثت عن جدك وأبيك ثم أغفلتنى . . » .

ضمها إلى صدره فى حنان بالغ وقال :

ـ « أنت أمى حبيبتى ، ما أسعد اللحظات التى أقضيها معك . . » .

فأشرق جبينها بالفرحة ، ثم تذكرت ، فدفعته فى حنان قائلة :

ـ « كيف تتكلم عن أخطاء جدك ؟؟ أكانت له أخطاء . . لقد عاش طول عمره خادماً لله ، راعياً للكنيسة ، يقضى أبهج أوقاته فى ميادين القتال حتى أقام لك ذلك المجد الضخم . . »

وقع إياسو فى حيرة ، حاول أن يتكلم ، ما جدوى الكلام وخاصة إذا كان سيخلِّفُ أسى فى النفس . . نفس أمه التى حملته تسعة أشهر ، والتى يجرى دمها فى عروقه . .

ـ « كان حب جدك لك يكاد يبلغ مرتبة العبادة . . » .

ـ « أعلم ذلك . . » .

ـ « فكيف يكون له أخطاء ؟ . . » .

ـ « إنك تخلطين بين قضيتين . . » .

ـ « كفى يا إياسو . . إنك تتجرأ على كثير من المقدسات »
قال إياسو وقد شرد ببصره إلى بعيد :

ـ « الله وحده . . هو الذى أقف فى كنفه مطاطىء الرأس . كسير القلب ، ألهج بالضراعات . . إننى لا أعبد سواه . . أقدس كلماته ورسالاته . . »

وجاء صوت زوجة الامبراطور رخيماً مبتهجاً :

ـ « إياسو . . إياسو . . أين أنت أيها الحبيب ؟؟ »

قال إياسو بصوت خفيض :

ـ « هذه الطفلة لا تكف عن مطاردتى . . » .

قالت شو أرقاش فى سعادة :

ـ « إنكما تدخلان على قلبى السرور . . يا طفلىّ العزيزين . . » .

ثم قالت بصوت مرتفع :

ـ « إنه هنا أيتها الخبيثة الماكرة . . ألا تتركينه مع أمه ساعة . . » .

وأقبلت زوجة الإمبراطور تحمل فى يدها مكتوباً :

ـ « إننى أزف للجميع بشرى طيبة . . إن العمة « مالفن »

والرأس « تفرى » قادمان اليوم لزيارتنا . . » .

وهتفت « شو أرقاش » :

ـ « مرحباً مرحباً . . لقد تشوقت إلى ابنتى مالفن كثيراً . . »

وساد الوجوم وجه الرجلين ، وتبادلا نظرات ذات معنى ، وثرثرة المرأتين لا تنقطع ، وبين الرجلين حـديث صـامت عاصف، لكأن ميكائيل يقول : لشد ما أكرهه ، ولكأن إياسو يرد عليه : وأنا الآخر أمقته أشد المقت ، إنه صورة مجسدة لأطماع الكنيسة ، ومكائد المستعمرين الغربيين ، وسوط عذاب على مخالفيه فى الرأى والعقيدة فى المنطقة التى يحكمها . .

انتحى إياسو جانباً ومعه أبوه ، وأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث ، يتحدثان عن ضغط الكنيسة لإشعال نيران الحرب ، والقضاء على الإمارات الإسلامية ، وإنشاء الكنائس ، ورصد الأموال لرجال الدين ، ويتحدثان عن الحرب العالمية وما تجره من ويلات ، ذلك الصـراع اللافح على الصـعيـد الدولى والمحلى . .

وأخيراً قال إياسو :

ـ « متى نبدأ ؟؟ »

قال الأب :

ـ « أى ولدى الإمبراطور . . لا تضرب بسيفك ضربات

عشواء ، ولا تنطلق إلا من قاعدة قوية متينة ، ولا تتقدم إلا ومن حولك رجال يؤمنون بما تؤمن به . . وافتح قلبك لعبير الحقول فى السهول والغابات والقرى ، وتحسس آمال الناس فى كل مكان ، وكن نعم الراعى فيكونوا خير الرعية . . إن الشعب الذى يحب مليكه هو القلعة الحصينة التى يحتمى بها عندما تدلهم الخطوب . . ولا تجعل بينك وبينهم حجاباً أبداً ، ولا تنكل بخاطئهم ، واعف عن مسيئهم . . وقرّب المخلصين والأتقياء . . » .

قال إياسو :

ـ « كلمات حلوة يطرب لها قلبى . . لكن متى أمزق القناع الصليبى الذى أضعه فوق وجهى ؟؟ »

وأخذا يتدارسان الموقف وأبعاده ، ويدلى الأب بتجاربه المريرة فى الحياة . وأخيراً اتفقا على أن تكون البداية هى أن يخرج إياسو فى جولة طويلة يجوب فيها أنحاء البلاد حتى يعرف عن كثب قضاياهم ومشاكلهم والطاقات الكامنة فيهم ، ويلتقى بهم دون حجاب ، و يحادث شيوخهم وشبابهم ، مسلمهم ومسيحيّهم ، ويمهد للإجراء الحاسم الذى سيتخذه .



دقَّت الأجـراس ، واصطف حـرس الشـرف على طول الطريق ، وتوافـد رجـال الكهنوت وعلى رأسـهم المطران ، واستقبل « الرأس تفرى » استقبالاً يليق بمقامه . . أليس أحد حكام المقاطعات الكبيرة ، وصهر الإمبراطور ، وابن الكنيسة البار ؟؟ وبعد أن انتهت مراسيم الاستقبال قصدت «مالفن» إلى أخيها إياسو وألقت بنفسها بين ذراعيه ، وهتفت من قلبها : «أيها الحبيب إياسو ، لشد ما تشوقت إليك ؟؟ » ثم هرولت إلى أبيها وأمها وزوجة أخيها ، وهى تكاد تطير من الفرح ، وأخذت ترمق جنبات القصر الإمبراطوري بحنان بالغ ، لكأنما هذه الأركان ، وتلك الجدران ، وهذه التحف المتناثرة والستائر والأبسطة والخدم . . لكأنما كل هذا جزء من ذاتها ، من وجودها ، وتنفست الصعداء . وحمدت الله ، وتمتمت قائلة :

ـ « ليتنى أبقى معكم هنا طول العمر » .

قالت زوجة إياسو عاتبة :

ـ « وكيف تطيقين البُعد عن تفرى . . » .

هزت رأسها فى أسى وقالت :

- « تفرى ؟؟ » .

- « ماذا ؟؟ » .

- « إنه لا يفكر إلا فى نفسه . . لم يتزوجنى بل تزوج الحكم . . » .

- « هذا كلام خطير يا أختاه - إننى أعتقد أن تفرى على خلاف ما تظنين . . حاكم قوى ، مرهوب الجانب ، يثنى عليه رجال الكنيسة . . » .

- « ليس رجال الكنيسة كل شىء . . » .

- « بل رضاهم هو المهم . . ».

قال إياسو لتفرى فى قاعة استقبال الضيوف :

- « جميل منك أن تذكرنا بهذه الزيارة » .

نظر تفرى فى شك ، فالعداء بينهما منذ أن كانا طالبين فى المدرسة ، وما أكثر ما اختلفا فى الرأى ، وفى فهم أمور الدين ، كان تفرى يبدو فى نظر إياسو وكأنه رجل من رجال الأعمال الجامدين ، لا يفكر إلا فى الربح والخسارة ولا يقيس الأمور إلا بمقاييس ذاتية ضيقة . كان غبياً وإن كان خبيثاً دؤوباً ، وكان قاسياً فظاً وإن تظاهر بالرحمة والرقة ، وكانت الكلمات بالنسبة له لا تحمل سوى أكثر من معنى واحد ، هناك حق أو باطل ولا

شىء بينهما ، ورأيه نهائى ولو جانبه الصواب ، فلسفته العنف والقوة والبطش الحاسم ، يتحدث كثيراً عن السماء وأفكاره ملتصقة بالأرض الموحلة ، ويثنى على القساوسة والرهبان ولكنه يحتقرهم ، وينحنى لهم لا احتراماً وتقديساً ولكن ليبعث بنظراته الحادة باحثاً عن منفذ إلى نفوسهم وقلوبهم ، يحترم المستعمرين الغربيين لأنه يؤمن بالقوة ويقدسها ويجعلها فوق المبدأ والعدالة . يشك فى أقرب المقربين إليه . . ثقيل الظل حتى على أصدقائه . .

وكان إياسو فى نظر تفرى ، شاعراً حالماً، تؤثر فيه الأحداث الصغيرة ، يطيل التأمل ، ويحلق بروحه إلى بعيد ، ويكتظ عقله بالأمنيات ، يفلسف ضعف الآخرين ، ويلتمس لهم الأعذار ، لا يقبل الدنيا على علاتها ، ثائر دائماً ، يرى كل شىء ناقصاً ، ولا يبدو له الكمال إلا فى عالم المثال ، ليست هناك حدود فاصلة بين القيم المتضاربة ، إن هناك نوعاً من التداخل والامتزاج فليس هناك شرٌ محض ، ولا خير محض إلا فى عالم الأبالسة ، والملائكة . . يقضى أوقاتاً طويلة فى التفكير بتعاسة الآخرين . . حانق دائماً ، قلق دائماً ، يبحث عن الصورة المثلى فلا يجدها . .

قال له تفرى ذات مساء وهم يتلقون العلم فى المدرسة :

ـ « لا أستطيع أن أتصورك إمبراطوراً على نسق جدك منليك»

قال إياسو :

ـ « هو ذلك . . إن منليك شىء وإياسو شىء آخر . . » .

ـ « لكن أيها الصديق إن للملك سمة خاصة » .

ـ « ماذا تعنى يا تفرى ؟؟ » .

ـ « أعنى أنه يلزمك الوقار والصلابة والحسم ، وشىء من التعالى على الآخرين . . لأن الإمبراطور خلق آخر غير باقى الناس . . » .

قال إياسو مازحاً :

ـ « هل قرأت شيئاً من هذا فى الأناجيل ؟؟ » .

ـ « بل قرأته على صفحات التجربة . . فى الحياة العملية . . » .

ـ « ليس لدى مسلّمات يا تفرى . . » .

ـ « بل لك جسم رجل ، وعقل طفل ، وقلب شاعر » .

ـ «وأنت ؟؟ أنت . . » .

ـ « ماذا ؟؟ » .

ـ « جلاد يا تفرى » .

وقهقه تفرى ساخراً ، بينما توترت أعصاب إياسو ، كان يظن أن تفرى سينشب فيه أظافره ، ليرد عن نفسه تلك التهمة البشعة ، لكنها ـ كما يبدو ـ لاقت استحساناً لدى تفرى ، الذى قال :

ـ « جلاد لأعداء الله . . » .

ـ « من هم ؟؟ » .

ـ « الذين لا يؤمنون بالرب يسوع » .

أخـذت تلك الذكـريات تنثـال فى رأس كل من إياسـو وتفرى، ومن حين لآخر ينطق أحدهما بعبارة ترحيب أو شكر جامدة ، لا تعدو عن كونها مجاملة ضرورية ، بين صهرين ،أو بين ضيف ومضيف ، وقال تفرى :

ـ « كيف حال الأم « شو أرقاش » ؟

ـ « بخير » .

ـ « وخالتك (زوديتو) ؟؟ » .

ـ « إنها على أحسن ما يرام . . » .

ـ « وزوجها (غوغسا) » .

ـ « الجميع يرحبون بمقدمك . . » .

وساد الصمت برهة . قال إياسو بعدها :

ـ « وكيف حال شعب المقاطعة ؟ » .

ـ« إنهم يقدمون فروض الطاعة والولاء لامبراطورهم المفدى إياسو العظيم حفيد منليك العظيم . . » .

ـ « يبدو أنك لا تلاقى أى نوع من المتاعب . . » .

ـ « طبيعى أن تنشب بعض المشاكل ، وخاصة من بعض المسلمين . . أنت تعرف طريقتى . . إننى أحسم الأمور دائماً بطريقة واعية . . إن سخافات المسلمين لا تنتهى . . ما زالوا مصرين على إنشاء المساجد وتعليم اللغة العربية ، وتلقى الدروس الدينية من الوعاظ . . » .

قال إياسو :

ـ « ليست هذه مشاكل بالمعنى الصحيح . . » .

ـ « معذرة مولاى الإمبراطور . . إنها أمور جد خطيرة . . يجب أن يحرص مولاى على وحدة البلاد . . » .

ـ « حرية العقيدة والرأى تدعم هذه الوحدة . . » .

ـ « اسمح لى أن أخالفك الرأي ، كيف تكون الوحدة بين مسلمين ومسيحيين ، بين لغة عربية وأمهرية ، بين مساجد وكنائس . بين أناجيل وقرآن ؟! هذه صورة مزعجة تعرض

البلاد للتشتت والضياع . وهدير الحرب العالمية يصم الآذان . . إنها فترة حرجة . . ».

قال إياسو وهو يكظم غيظه :

ـ « أيها الصديق تفرى . . وإن رأيى على النقيض من رأيك تماماً ، إن بلادنا يجب أن تكفل حرية الجميع ، مستحيل أن يكون الناس فى أى بقعة من بقع الأرض على رأى واحد . . الناس ليسوا صوراً شمسية . هناك حد أدنى من الوحدة واللقاء بين البشر ، لكن الوحدة التى تنشدها لا وجود لها فى الماضى أو الحاضر . . إن اختلاف الرأى لا يعنى العداء والفرقة والتمزق . . ماذا أقول أيها الصديق تفرى . . إنها قضية لا تحتاج إلى نقاش طويل . . ».

قال تفرى ببرود بالغ :

ـ « معنى ذلك أن نفتح الطريق للفتن والاضطرابات ، فنقضى بذلك على مجد المسيحيين فى بلادنا . . » .

ـ « الفتن والاضطرابات شىء آخر ، ولها علاج يتفق وطبيعة كل منها . . » .

قال تفرى وقد رفع رأسه فى تحد ، وانفرجت شفتاه فى اشمئزاز :

ـ « لكنها أوامر الكنيسة . . » .

هز إياسو رأسه ، لقد وقع فى حيرة ، أيهاجم الكنيسة ؟؟ هذا ما يريده تفرى ، إذن فالكنيسة هى التى تحكم ، الكنيسة الحبشية بأفقها الضيق ، وتعصبها الفردى ، وتوصياتها التى تبدو أبعد ما تكون عن تعاليم المسيح وأناجيله . . الإمبراطور إذن رمز . . آلة مسخرة فى يد الأطماع الكنسية والتبشيرية . . يا لها من كارثة ! . .

وفى نبرات هادئة قال إياسو :

ـ « من الذى يحكم يا تفرى ؟ » .

ـ « الامبراطور . . أنت يا إياسو » .

ـ « والكنيسة . ما دورها ؟؟ » .

ـ « توصى وترشد وتوجه . . ».

أردف إياسو دون تردد :

ـ « حسن . . لنكن صرحاء . . أتعتقد أن هؤلاء الذين يثيرون المشاجرات فى الشوارع ، ويتخاطفون النساء ، ولا يكادون يفيقون من السكر . . هل هؤلاء قادرون على حسن التوجيه ؟؟ » .

ـ « أعرف أيها الصديق إياسو أن بعضهم قد أساء التصرف ،

لكنهم يمثلون السلطة الدينية . . السلطة الروحية العليا فى البلاد، ولهم التأثير الأكبر فى جماهير الشعب . . هذه حقيقة ، لا يمكن إنكارها ، مهما كان الأمر . . » .

وكثعلب ماكر همس تفرى :

ـ « ترى ألك موقف جديد مع الكنيسة ؟؟ » .

هذا اللعين « تفرى » يريد أن يلعب لعبته الدنسة ، أن يوقع بين القصر والكنيسة ، وفى هذه الأجواء الدنسة المظلمة يستطيع أن يثب فوق القمة ، إننى أعرفه ذلك الانتهازى المخادع ، رجل الأعمال . . صديق الإنجليز والفرنسيين وبعثات التبشير . . ذلك الذى يشبع غرور رجال الكنيسة ، وينفخ فى كبريائهم ، ويمرغ خديه على أعتابهم . . أفاق إياسو من أفكاره على عينين ترمقانه فى دهاء ، وقال :

ـ « أيها الصديق تفرى . . إن المطران والإمبراطور رجلان لهما غاية واحدة . . هما بالنسبة للحبشة كالذراع اليمنى والذراع اليسرى . . إن ما أقصده هو إصلاح حال الكنيسة ، والقضاء على ما فى بعض رجالها من انحرفات ومساوئ ، حتى يكونوا قدوة صالحة للناس . . وحتى يكتب الله النصر لقواتنا . . إننى فى حاجة إلى كثير من الإصلاح والتدبير فى شتى مرافق حياتنا ألست معى فى ذلك ؟؟ » .

قال تفرى وقد فشل دهاؤه :

ـ « الإصلاح مطلوب دائماً » .

ـ « ولسوف أقوم بجولة كبرى فى طول البلاد وعرضها لرؤية الأمور عن كثب . . وحتى نرد لك زيارتك الطيبة أيضاً فى مقاطعتك ، وعلى ضوء ما نلحظه من أمور ، تكون سياسة الدولة . .

قال تفرى :

ـ « هذا عين الصواب . . » .



طفح الكيل ، واستبد الضيق « بمالفن » . . كانت تشعر أن كابوساً ثقيلاً يجثم على صدرها ، ويكبل روحها ، إن حياتها مع تفرى قد أصبحت مرة المذاق ، تتجرعها على الرغم منها ، لكن إلى متى ترضخ لهذا الذل ، وترضى بذلك الهوان ؟ إن أتعس لحظاتها هى الأوقات التى تقضيها إلى جوار تفرى ، وهو قلما يخصص وقتاً خالصاً لها ، نظراته إليها ترعش جسدها ، لمساته تبعث النفور فى نفسها ، ذلك الوجه الأسود المتصلب يثير لديها الكراهية . . إنه ليس إنساناً بأية حال من الأحوال . وساورتها الشكوك ، لم تر زوجها تفرى ؟ آه لم يعد ذلك خافياً على أحد . . تزوجها لأنها حفيدة منليك وشقيقة الإمبراطور إياسو ، مجرد صفقة رابحة من وجهة نظره كما يفعل التجار ورجال الأعمال ، وتجربتها معه طوال تلك السنين أثبتت أنه يظهر خلاف ما يبطن ، ويضحك وقلبه مفعم بالأحقاد ، ويرحب بالضيوف وهو يعد لهم الخناجر ، ويتملق الشعب وهو لا يطيق أن يناقشه أحد الحساب . . صورة من الانحراف البشرى التى لا تطاق . . إن قصره يبدو لها وكأنه سجن أسود

نحيف ، ورجاله وخدمه يبدون وكأنهم عيون مرصودة . لا يكشف لها عن نواياه ، ولا يفتح قلبه لها ،إنها مجرد موظفة فى بلاطه تؤدى دورها كزوجة للحاكم . . إنه ليس الزوج الذى تحلم به ، ليس زوجاً على الإطلاق . .

واجتمعت الأسرة للحفاوة بالضيف تفرى ،أتت الخالة الأميرة زوديتو ، وزوجها « غوغسا » ، والأب ميكائيل وأسرته، والأم شو أرقاش ، وإياسو وزوجته ، وجلسوا فى المساء يمرحون . ويستعيدون الذكريات والأيام الخوالى ، وتفرى جالس فى مكانه كالصنم الأسود يسمع ولا يتكلم إلا نادراً ، ويرقب الجلوس واحداً واحداً ، كأنه واحد من رجال التجسس لا يتحرك ولا يتكلم إلا بحساب ، كان ثقيل الظل ، مقيت السمت ، إذا حاولت زوجته « مالفن » أن تأخذ حريتها فى المرح والمداعبة ، سدّد إليها نظرات صامتة كوقع النار المحمى، إنه يحاصرها ، ويفرض عليها الوقار الغبى ، والتعالى الأجوف . وأخيراً انسحب إياسو وتبعته أخته « مالفن » . وهتفت به :

ـ « إياسو . . إياسو . . هل تسمح لى بقضاء بعض الوقت معك ؟؟ » .

ـ « هذا يسعدنى يا أختاه . . هلمَّ إلى حجرة مكتبى . . » .

ـ « لا . . لا . . هناك فى الحديقة . . إننى أشعر بالاختناق وأريد الهواء . . رائحة الزهور . . » .

فى كنف إحدى الخمائل ، وعلى مقعد خشبى نظيف جلس الأخوان ، قالت مالفن الجميلة السمراء :

ـ « إننى تعسة الحظ يا إياسو » .

ـ « كيف ؟ » .

ومضت دون أن تجيب :

ـ « كالتائهة فى بيداء موحشة بلا دليل . . وحياتى ألعن من الموت . . هل من الضرورى أن نقيد أنفسنا بالسلاسل والأغلال حتى يرضى عنا الله ؟؟ » .

قال مندهشاً : ؟

ـ « ماذا جرى ؟؟ » .

ـ « تفرى لا يطاق ، وأنا لا أستطيع العودة معه . . » .

ـ « تلك كارثة يا أختاه . . إن تمرد شقيقة الإمبراطور على تقاليد الكنيسة وشرائعها أمر فى غاية الخطورة ، وقد يحرج هذا مركزالقصر ، ويثير ثائرة تفرى . . » .

قالت دامعة العينين :

ـ « وما شأنى بكل هذا . . إننى لا أريده . . أكرهه . . إن إرغامى على العيش معه أمر مهين . . شىء لا يرضى الله . .

الكنيسة لا ترى العذاب للناس ، ولا تقر القيود والنفاق إلا إذا كانت الكنيسة منحرفة لا تعرف الله . . » .

هز إياسو رأسه :

ـ « آه يا بنت ميكائيل ، وشقيقة إياسو . . نفس المشكلة . . نحن جيل متعب ضائع . . يبحث عن شيء أصيل يتمسك به ، يبحث عن ذاته . . مثل شعبنا تماماً . . آه لم تخبريني عن السبب الذي دفعك لكراهيته . . » .

قالت محتدة :

ـ «هناك عشرات الأسباب . . لكن أليس لي الحق أن أكرهه لأن قلبي يشعر بذلك ؟ » .

ـ « في دنيانا هذه لابد أن تكون هناك أسباب ، قد تكون أسباباً مفتعلة ، لكن لابد منها ، الناس دائماً يؤكدون اعترافهم بعواطفهم إلا أنهم يريدون تبريراً آخر . . قد يكون مجرد أكاذيب وتلفيقات ، لكنهم يريدونه . . أتفهمين ؟ . » .

وصدم إياسو صدمة كبرى حينما سمع أخته تقول :

ـ « أخاف أن يقتلني . . » .

ـ « يقتلك أنت يا مالفن ؟؟ هل جننت ؟؟ مستحيل . . » قالت مالفن وهي تدق الأرض بقدميها :

ـ « صدقنى . . إنه يفعل ذلك دائماً . . إنه يقتل الكثيرين بالسم ، وأحياناً لا يشفى غليله إلا إذا ذبح غريمه بيده ، إنه لا يفعل ذلك بالمسلمين وحدهم ، بل بالمسيحيين أيضاً . . صدقنى . . ! . . تفرى يصل إلى غايته عن طريق الغدر والبشاعة . . هذا الذى يدافع عن الدين ، وينحنى أمام القساوسة ، وضع السم بنفسه ذات مساء لأحد القسس . لا أدرى لماذا ؟؟ لو ارتكب الضحية جرماً لعولج بطريقة أخرى . . ويتغنى بالتسامح والإخاء ، ثم يبعث برجاله ليذبحوا المسلمين كما تذبح الشياه ، وبعد ذلك يستنكر جريمته ، ويبدى أسفه واعتذاره ، ويتوعد الجناة الذين بعث بهم . . ثم ينتهى كل شىء . . آه يا أخى . . إننى أنظر إلى يديه وفمه وهو يتناول طعامه فيخيل إلى أنها مخضبة بالدماء . . شىء مقزز أليس كذلك ؟؟؟ ماذا أقول ؟؟ أعفنى . . لكن لماذا أخفى عنك كل ذلك ؟؟ حدث ذات مرة أن صفعت جارية كانت تتجسس علىّ . . فانفجرت غاضبة وقالت كلاماً كثيراً . . فهمت منه أن لتفرى حكومة خفية من الخدم والحرس والجواسيس و الجلادين وبعض القساوسة . . إنه يتصرف وكأنه الإمبراطور المنتظر . . معذرة كان لابد أن أوضح كل شىء . . » .

شرد إياسو بضع لحظات ثم قال :

ـ « أعرف أنه نذل خبيث . . إنه سبة فى جبين المسيحية التى يعتنقها وفى جيش الحبشة التى يدعى حبها . . إنه تلميذ قذر لميكيافيللى . . » .

قالت مالفن :

ـ « لا شأن لى بميكيافيللى أو غيره . . المهم ألا أعود معه . . » .

قال إياسو :

ـ « بل ستعودين !! » .

صاحت فى حنق :

ـ « كيف ؟؟ وبأى حق ؟؟ لن أريق ذاتى وحياتى فى سجن ذلك المأفون ، فليقولوا عنى ملحدة . عاصية لله . . فليقولوا ما يشاؤون ، لكنى لن أكون أمة مسترقة . . » .

نظر إلى بعيد وتمتم :

ـ « لم يؤن الأوان بعد » .

ـ « إن اللحظة معه تساوى دهراً من العذاب . . أنتم لا تعرفون ، فأنا التى تحترق فى وقدة الشقاء . . » .

ـ « أعرف ذلك يا أختاه . . فقد جربته واكتويت بناره . . لكن ثقى أنه لا ينضج الإنسان الحر إلا الألم العظيم كما يقول والدنا . . » .

لوحت بيدها محتجة وقالت :

ـ « . . هراء . . الألم لا يكون عظيماً ، إنه يدمر ويحرق ويذهب العقل . . إنه يتلف إنسانيتى ومُثلى العليا . . الذين يتألمون قد يشتط بهم التفكير فينحرفون ، أو على الأقل يعتبون على الله . . الحقيقة الوحيدة الماثلة أمام أعينهم هى أنهم ضحايا يتعذبون . الثأر يأكل قلوبهم بل ويعميها . . الحقد يلوث كل شىء شريف فى أعماقهم يا إياسو . . إرحم أختك يا حبيبى . . لست كالمسيح ، فأنا امرأة ضعيفة ، واهنة القوى ، مشتتة الفكر ، معذبة الروح . . . إن االسماء لن ينفعها ألمى العظيم كما تسميه ، والألم لن ينضجنى ، ولكنه سيحرقنى ويحيلنى إلى رماد . . أجل إلى رماد تذروه الرياح . . . » .

شرد إياسو ، وأخذ يردد :

ـ « يقول محمد ـ ﷺ ـ . . . « **فطوبى للغرباء** . . قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال : **الذين يصلحون حين يفسد الناس . . .** » نحن غرباء يا مالفن فى هذا العالم القاسى الرهيب . . وسيعود الغرباء يوماً إلى مسكنهم . . إلى الاستقرار النفسى والروحى . . وعندما يعودون ، فسيتحول الألم إلى نعيم ، وتورق الأرض ، وتزهر البساتين . . وينتصر الإنسان ، ويقف على الأرض حراً شريفاً ، وقلبه معلق بإرادة الله . . » .

قالت فى ثورة :

ـ « لا المسيح ولا محمد استطاعا أن يزيلا عذابى » . .

ـ « استغفرى الله يا بلهاء . . أنت لا تعرفينهما . . لو عرفت عنهما شيئاً أصيلاً لعرفت الله ، ومن يعرف الله يمتلئ قلبه باليقين . وتشرق روحه بالحب ، وتتحول نيران العذاب إلى برد وسلام ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ . . تلك هى الحقيقة نحن البشر كثيراً ما نخطىء السير ، ونضل الطريق لأننا لا نعرف كيف نبدأ ، لسوف نشقى وحدنا . . . فإذا آمنا أن الله إلى جوارنا فاضت قلوبنا بالقوة والعزم ، وعرفنا الطريق . . . » .

جففت « مالفن » دموعها ، ورفعت وجهها الشاحب ، وهمست :

ـ « تريدنى أن أعود » .

ـ « أجل . . » .

ـ « وألعق جراحى فى سجن تفرى ؟ » .

ـ « الله معك . . » .

ـ « لكن الوحدة تمزقنى ، والخوف يفترسنى » .

ـ « لن تكونى وحيدة إذا دعوت الله . . » .

ولعلع صوت زوجة الإمبراطور بين الأشجار من جديد :

ـ « إياسو . . مالفن . . أين أنتما ؟؟ » .

قال إياسو وهو يحاول أن يبدد جو الكآبة الذى يثقل عليهما :

ـ « هذه الساذجة تريد أن تلتصق بى ليل نهار . . » .

ـ « إنها تحبك يا إياسو » .

ـ « بل تحب نفسها . . رأسها محشو بترهات وأباطيل . . »

ـ « وهل تريدها فيلسوفة ؟ » .

ـ « أريدها أن تصمت . . ، إن مظهرها يوحى بالنضرة والحيوية فإذا ما تكلمت أو أبدت رأياً ، بدت دميمة شوهاء . . ».



سار موكب النجاشى إياسو يقطع الوهاد والتلال ، ويعبر الأنهار والجبال ، ويخترق الحقول ، ومعه نخبة من مستشاريه الكبار ، وهم كانوا من قبل مستشارين لجده منليك ، الفلاحون فى القرى ـ مسلمين ومسيحيين ـ ينحرون تحت أقدامه الذبائح ، و الهتاف باسمه ينطلق كالرعد ، وتطلع الشيوخ والأطفال والنساء والشباب فى هيام وتقدير للإمبراطور الشاب الذى لم يسفك دماً ، ولم يرهقهم بضرائب ، أو يستولى على أراضيهم ليهبها للكنيسة أو جماعات التبشير ، وكانت تعليقات الجماهير فى المدن والقرى وفى أى مكان تصل إليه :

« لقد جادت علينا السماء بهذا النجاشى العادل » .

« إننا نحب إمبراطورنا من الأعماق » .

« ليس هناك من عيب نأخذه على النجاشى سوى بطانة السوء التى تحيط به » .

« هذا النجاشى يعرف الله ، والعدل والمحبة » .

« نفديه بأرواحنا . . » .

« عاش النجاشى العادل » .

وفى إحدى المدن الكبرى ، تقدم إليه وفد من علماء المسلمين ، وبعد أن تقدموا بفروض الطاعة والولاء ، قال كبيرهم للإمبراطور :

ـ « أيها النجاشى العظيم . . إن فيض كرمك قد أطمعنا فيك . . » .

قال إياسو خجلاً :

ـ « إننى أؤدى واجبى نحو شعبى ، فأنا ما تسلمت مقاليد الأمور إلا لأحقق للجميع آمالهم فى العدل والحرية والرخاء ، ما جئت طاغية جلاداً ، بل داعياً للخير والسلام . . » .

قال كبير الوفد :

ـ « أطال الله بقاء الإمبراطور ، وحقق على يديه الآمال ، وأعز به الأمة ، وفرّج به الغمة . . » .

هتف إياسو :

ـ « ما هى مطالبكم ؟؟ » .

ـ « السماح لنا ببناء مسجد فى المدينة ، كى يستطيع المسلمون أن يؤدوا فيه فرائض الصلوات ، ودروس الدين ، فمنذ أن هدمت مساجدنا ، وقامت على أنقاضها الكنائس ، ونحن لا نستطيع أن نجد مسجداً نأوى فيه إلى الله . . » .

قال إياسو :

ـ « لا اعتراض على إقامةبيوت الله سواء أكانت للمسلمين أو المسيحيين . . فلتلهج الألسنة باسم الله سواء أكان العابدون مسيحيين أو مسلمين . . » .

ومال عليه أحد المستشارين وهمس فى أذنه :

ـ « سيدى الإمبراطور . . إنها سابقة خطيرة » .

قال إياسو :

ـ « وماذا فى ذلك ؟؟ » .

ـ « ستثير علينا نقمة الكنيسة ، وتؤلب الرأى العام المسيحى، لقد درج آباؤك وأجدادك على غير ذلك . . » .

ووثب إلى جواره أحد القساوسة فقال :

ـ « مولاى : إن المطران ميتاوس لن يرضيه هذا التصرف . . ، إن رسالتك الأولى كنجاشى للحبشة هى الحفاظ على الدين المسيحى ، والقضاء على ما عداه من الأديان ، وكل ما عدا ذلك فهو واجبات ثانوية على الإمبراطور إنك بذلك يا سيدى الإمبراطور تخرق المخطط الذى رسمته الأجيال المسيحية وحافظ عليه مجلس الكنائس الأعلى ، وأيدته الدول الأوربية الصديقة . . ».

أشاح إياسو بوجهه ، وبدا الاحتقان ظاهراً فى عينيه ، وقال مخاطباً الواقفين على اختلاف عقائدهم وتصوراتهم :

ـ « يا أبناء شعبنا العظيم . . إننى أعلن بكل قوة وإيمان ، أن العهد الحاضر يحمى حرية العقيدة ، ويحارب العنف والاضطهاد العنصرى أو الدينى ، ولا يرغم أحداً على اعتناق دين غير دينه ، ويتيح الفرصة لبناء الكنائس والمساجد ، ويفتح الطريق أمام كل الثقافات الأصيلة ، إن شعبنا بكل طوائفه وعقائده يجب أن يعبر عن نفسه تعبيراً واعياً مخلصاً بعيداً عن العنف والصراع الدموى والتعسف . لن تستطيع أية قوة أن تطرد فلاحاً من أرضه ، أو تخلى قرى بأكملها لتسليمها للمبشرين أو ذوى النفوذ . . . إن نظرتنا للأجانب هى نظرتنا إلى ضيوف يجب أن يراعوا أصول الضيافة وتقاليدها العريقة ، دون تدخل فى سياستنا الداخلية والخارجية وشؤوننا الخاصة . .

وساد هرج ومرج ، وانطلقت الحناجر هاتفة معبرة عن الرضا التام ، والتأييد المطلق ، فيما جمد المستشارون والقساوسة فى أماكنهم ،قد أخذتهم المباغتة ، وألجمتهم الحجة ووضوح الاتجاه وأصالته وأشار الإمبراطور بيده كى يصيخوا السمع :

ـ « يا أبناء شعبنا العظيم . . لن يزج ببرىء فى السجون بعد

اليوم ، ولن يراق دم بغير ذنب ، ولن تفرض ضرائب جديدة بدون مبرر قوى ، ولن نرحم أى مثير للفتنة مهما كانت سلطته . . إن القانون يجب أن يحمي الضعفاء ، ويجابه طغيان الأقوياء . . » .

(هدير وهتاف وتأييد تام . .)

وعاد إياسو يقول :

ـ « إن مؤسسات الدولة الدينية والمدنية والسياسية يجب أن يكون لها حدود مرسومة ، وخطة واضحة ، وسياسة سليمة لا تحيد عنها ، وعلى الشعب أن يؤدى دوره إلى جانب الإمبراطور . . إن الإمبراطور وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، أنتم القادرون على تحقيق الآمال ، والحفاظ على مبادئنا التى اعتنقناها . . ويجب أن يكون الجميع على استعداد تام لبذل كل الجهود لإنجاح سياستنا الجديدة . . ولسوف تصدر فى الأيام القادمة بعض القرارات الهامة لوضع هذه السياسة موضع التنفيذ . . » .

* * *

اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وحار المستشارون فى أمرهم ، فمن قائل : أن الإمبراطور الشاب ماكر خبيث ، يجيد الحديث المعسول حتى يكتسب محبة الشعب ، ويحظى بتأييده ، ويمتص تمرده ، ثم يضرب بعد ذلك بيد من حديد ، حتى تدين له البلاد ، ويفعل ما يريد بعد ذلك كحاكم مطلق

اليدين يملى إرادته بالطريقة التى ترضى قصره ورجال كنيسته .

وآخر يقول : إننى أتوجس خيفة من هذا الاتجاه الخطر ، لقد كان الإمبراطور يخطب فى انفعال ، لم يبد عليه أنه يمثل أو يفتعل الحماس . .

وهز أحد القساوسة رأسه ، وقال : إن الأمر أخطر مما تظنون . . إن إياسو هو ابن ميكائيل حاكم «وللو » . . أعنى ابن محمد على المسلم المتنصر . . إن دماء الكفر تسرى فى دمه . . أيها الأصدقاء نحن أمام أكبر تحد فى تاريخ الحبشة ، نحن لا ندرى بما يدين هذا الرجل أبالمسيحية أم بالإسلام ؟ إن الشائعات تحوم حول أبيه يزعمون أنه يخفى إسلامه . . يجب أن نرسل تقريراً مفصلاً إلى « الأنبا ميتاوس » . .

وقال مستشار آخر : « لا يصح أن نتعجل الأمر ، فقد يكون للإمبراطور فلسفة تسامحية بريئة المقصد ، لا يقصد من ورائها سوى الأمن والاستقرار ، حتى تلتئم الوحدة الشعبية ، وتتاح الفرصة للثروة القومية كى تنمو وتزدهر ، وبعد أن قاست بلادنا الكثير من الفتن والاضطرابات . . إن مصلحة الدولة العليا فوق كل اعتبار»

فردَّ القس : « بل إن العقيدة الدينية فوق كل اعتبار » ، فردَّ عليه الرجل :

ـ « إنهما شيء واحد أيها الصديق . . ومصلحة البشر لا تتعارض مع وحى السماء ، تلك فى رأيى حقيقة بديهية »

قال القس :

ـ « هذا تصور خيالى متعسف ، إذا ضل البشر الطريق ، واضطربت مقاييسهم ، وضعف الوازع الدينى لديهم ، فلسوف يحدث حتماً تعارض بين الدين والمصلحة العليا . . » .

ـ « سيدى القس : إن اضطراب المقاييس والأفكار فى نظرك ، قد يكون شيئاً آخر فى نظر الآخرين ، ومن ثمَّ فلا يمكن إصدار حكم صادق على أمر من الأمور إلا إذا اتسم تفكيرنا بالحياد والموضوعية . . وأنا لا أرى فى كلام الإمبراطور خطراً يُذكر إلاإذا اعتبرنا أن المساس ببعض الامتيازات والسلطات الخاصة أمراً خطيراً . . » .

واجتمع مجلس الكنائس الأعلى . وتحركت جبهات الاستعمار الأوربى ، وساد القلق دوائر خاصة تخاف على امتيازاتها ومصالحها ، وخاصة عندما صدر مرسوم إمبراطورى بالاستغناء عن المستشارين القدامى ، واختيار عدد آخر من المستشارين الجدد ، وبعد أن قرر الإمبراطور عدم صرف أية إضافات أو إعانات لميزانية الكنائس والنشاط الدينى إلا بعد تبيان أوجه الصرف وتقدير ضرورتها .

وكان المستبعد أن تمضى أمور الإمبراطور هينة ، دون أن تقام فى وجهه العقبات ، أو ترتكب الحماقات ، ففى ليلة مظلمة بينما كان الإمبراطور يقضى ليلة فى بيت متواضع قائم على أحد السفوح سمع هرجاً وضجة كبرى . أفاق من نومه ، وهرول نحو الباب ، وصاح بأحد الحراس :

ـ « ماذا جرى ؟؟ » .

ـ « مولاى الإمبراطور . . معذرة يجب أن تأوى فوراً إلى فراشك إن الظلام دامس . ونحن لا نعرف من أى اتجاه يأتى الخطر . . » .

قال الإمبراطور بصوت قوى حاسم :

ـ « أشعلوا القناديل . . وابعثوا بكوكبة من رجالنا يكتشفوا المنطقة . . ماذا جرى ؟؟ » .

وساد الصمت عندما رأى الإمبراطور عشرة من الجنود يجرون أحد الرجال الملثمين . ينطق الشر فى عينيه ، قال الإمبراطور :

ـ « ما هذا ؟؟ »

ـ « غادر أراد أن يرتكب إثماً كبيراً . . » .

وهنا قال الرجل المقبوض عليه :

ـ « جئت لقتلك . . إن الإمبراطور الذى يسمح ببناء المساجد إنما هو شيطان كافر ليس له عقوبة سوى القتل . . لست آسفاً على ما كنت أنتويه ، وإنما أسفى لأننى لم أؤدِ المهمة المقدسة» .

وهتف الإمبراطور :

ـ « دعوه . فكوا وثاقه . اتركوه لى . . » .

ذهل الجانى ، تدلى فكه الأسفل ، « يريد الإمبراطور أن ينفرد بى ، ثم يذبحنى بيديه . جزاء ما عقدت عليه العزم » .

ـ « أيها الإمبراطور . . أنا لا أخاف الموت . . لقد فعلت ما فعلت دفاعاً عن الدين والشرف . . قطعت التلال والوديان ، وعبرت البرك والغابات . . كنت سعيداً غاية السعادة . . أجل . . من أجل الدين والشرف . . » .

قال إياسو :

ـ « أيها الرجل ألم تقرأ فى الإنجيل « الله محبة »

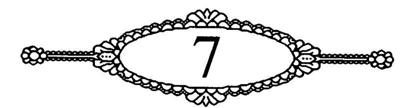
ـ « لم أقرأ فى الإنجيل ، ولكنى سمعت نصائح القساوسة . . والإنجيل لا دخل له فى ذلك . كل ما أعرفه أنك تحب المسلمين ، وتبنى المساجد ، ولا تعمل لنصرة المسيحية ونشرها . . ليست المحبة أن تترك الكفر يستشرى ، أو تكتم صوت الأجراس . . » .

وهز إياسو رأسه وقال :

ـ « خذوه حتى الصباح . . » .

وسرى النبأ فى كل مكان ، وهدرت جموع الشعب غيظاً وحنقاً ، وطالبت بتسليمها المجرم كى توقع عليه العقاب الذى يستحقه بنفسها ، وهكذا وجد إياسو نفسه فى وضع لا يسمح له بالتخفى بعد اليوم ، يجب أن يعلن على الملأ إسلامه . . ولو كان ثمن ذلك أن يضحى بعرشه وبحياته . . لن يسجن نفسه وفكره فى سجن الخوف والاختفاء بعد اليوم ، لن يمضى فى نفس الطريق الذى مضى فيه أبوه . .

إن إياسو غير ميكائيل . . غير محمد على . .



بزغت ابتسامات على شفاه المساكين ، ونفض المعذبون عن كواهلهم أعباء الأسى والخوف ، ورفع المصلون فى أنحاء الحبشة أياديهم يشكرون الله ، ويدعون أحر الدعاء أن يحمى الله الامبراطور الشاب ويقيه شر الغدر والخديعة . وفاضت المآذن بالتكبير والتهليل . وانتصرت إرادة الله . .

أيها الصابرون لتجنوا ثمار صبركم ورضاكم بقضاء الله . . هكذا كان يقول لسان الحال .

لقد أعلن إياسو إسلامه ، وأنه ينتمى الى أصل عربى يمت بصلة لنبى الإسلام . ولبس العمامة ، وارتدى الزى الإسلامى المناسب لذلك العصر ، وارتفع علم الحبشة فى الآفاق مرفرفاً بعد أن كتبت عليه عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وأعلن إياسو للجميع أنه قد اختار العقيدة التى اقتنع بها فكره ، ومال إليها قلبه ، وأن المسيحيين والمسلمين برغم ما حدث إخوة لا فرق بينهما . وأن الجميع على اختلاف مللهم ، ونحلهم سيجدون لديه العدل والمحبة والرعاية الكاملة ، فعقيدة كل إنسان أمر يخصه ، ولن تنعكس على شتى أفراد الرعية إلا

بالخير والحب ، فلينطلق الآذان في المساجد ، ولتدق الأجراس فى الكنائس ، فالرب واحد ، وغاية الأديان إسعاد البشر ، وتقويم أخلاقهم والخضوع لله وحده وسيادة القانون والإخاء والمساواة ، دونما تعصب أو إرهاب أو استغلال، ودون إراقة لدماء البشر .

* * *

قال ميتاوس المطران الأكبر :

ـ « هذا المرتد خان الله وخان الشعب . . »

قال أحد القساوسة :

ـ « لقد وجب قتله ، لماذا لا نصدر بياناً بعزله . . »

قال ميتاوس :

ـ « كيف نطلب من الشعب أن يقتل الرجل الذى يدعو إلى الحب والإخاء والحريات . لقد رفض أن يوقع إياسو على الحكم بإعدام الرجل الذي حاول قتله ، أما العزل فنحن لا نستطيعه، الضعفاء لا يعزلون الأقوياء ، إن أى قرار من هذا القبيل سخف وقصر نظر ، التغيير لايفرضه إلا مركز القوة ، لقد كانت قوتنا فى عهد منليك نابعة من إيمانه بمخططاتنا ، وانصياعه لآرائنا ، أما الوضع الآن فهو يختلف تمام الاختلاف، فالمسلمون قد انتعشت روحهم المعنوية ، وهم على استعداد أن

يبذلوا دماءهم فداءً لإياسو ، لأنه أملهم المرتقب ، ثم إن لديهم الإمكانات التى تكفل لهم النصر ، أما المسيحيون فقد استجاب عدد كبير منهم لاتجاهات إياسو التحررية والإنسانية . . والوثنيون يكرهوننا ، بل إن أعداداً كبيرة منهم أخذوا يعتنقون الإسلام . . فلم يبق أمامنا إلا الانتظار وانتهاز الفرص، لم يئن الأوان بعد لكى نضرب ضربتنا . . إن الفرنسيين والإنجليز على استعداد للتعاون معنا ، وبعض الرؤوس ـ حكام المقاطعات ـ هم الآخرون لن يدخروا وسعاً فى شق عصا الطاعة على إياسو والقضاء عليه . . وأملنا كبير فى الرأس « تفرى » إنه صهر الإمبراطور إياسو ، لكن « تفرى » على استعداد لأن يشنق أباه إذا خان السيد المسيح . . »

ـ « لن نستطيع الصبر . . إنى أكاد أجن . . الموت لهذا الخائن . . كيف يجرؤ على إعلان إسلامه . . إن تولى السلطة فى الحبشة لا يصح أن يكون لمسلم . . . هذا عارللأبد ، وسبة الأجيال ، نحن فى حاجة إلى منليك جديد أو تيودورس آخر . . »

قال ميتاوس :

ـ « ليس لدى ما أضيفه . . الوقت لم يحن بعد » .

قال أحد الجالسين :

ـ « ولماذا عقدنا الاجتماع إذن ؟؟ ألكي تقول لنا أن إياسو في مركز القوة ، وأننا ضعفاء ، وأن الشعب يحبه . . لكأنما جئت هنا يا سيدى المطران لتؤكد لنا أن الهزيمة قد حلت بنا . . »

قال ميتاوس :

ـ « لا أقول ذلك بالضبط ، إن الصبر لا يعنى الاستسلام ، وإتاحة الفرصة للتدبر لا يعنى الهزيمة ، إن حلفاءنا الغربيين مشغولون بتركيا وألمانيا ، والحرب قد شملت رقعة كبيرة من العالم ، ومثل هذه القضايا الخطيرة يجب أن تعالج بحذر ، وبحساب دقيق ، فإذا ما واجهنا إياسو فى معركة مكشوفة ، وخسرناها ، فقد سقطت الحبشة إلى الأبد فى أيدى المسلمين ، إن هذا الشاب إياسو عبقرى متوهج الحماس ، لكن فيه نقطة ضعف خطيرة . . »

رد الجميع قائلين :

ـ « ما هى . . »

ـ « طيبته وصراحته »

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « ومن هنا نستطيع الكشف عن نواياه ومخططاته ، وضربه فى اللحظة الحاسمة ، لقد استطعت إقناع زوجته بالانحراف الخطير الذى انزلق إليه زوجها الإمبراطور . . والآن

هى عين لنا هناك . . إنها تحبه . . لكنها تحب دينها ، وهى تحاول التوفيق بين هذين الاتجاهين . . إنها تتمزق ، ولكنى أفهمتها أننا لانريد سوى إصلاحه ، وإعادته إلى طريق المسيحية ، وسنحميه بأرواحنا ، ولن نرتضى إمبراطوراً غيره . وقد صدقت وارتاح بالها . وأنا على اتصال دائم بها . . وأمه «شو » العجوز ، لم تعد ذات نفع يذكر . . أما أبوه ميكائيل فهو الشر المستطير . . إن نكبتنا قد تولدت من أفكار هذا الرجل المتنصر الذى لا شك فى أنه يخفى إسلامه . . »

وخرج الأب ميتاوس من الاجتماع ، ودوى هائل يطن فى رأسه ، إن الهزيمة المعنوية تثقل على روحه وآذان المؤذنين يقلق مضجعه ، إن فى حجرته الخاصة عشرات التقارير الواردة من أنحاء البلاد ، وكذلك الواردة من قناصل الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وإنجلترا . . وإيطاليا أيضاً ، الكل مجمع على خطورة الأمر ، والكل مجمع على خطورة إياسو بالنسبة لمستقبل الحركة الصليبية في الحبشة ، وبالنسبة للأوضاع العالمية التى تهزها الحرب هزاً عنيفاً . .

« آه . . الرأس «تفرى » هو الأمل المنشود . . إن الأسلحة الآن تتدفق على مقاطعته ، وإعداد الجنود يجرى سراً ، والخبراء الأجانب يبذلون الجهد الجهيد لإنماء قواته المسلحة . . وإياسو لا

يؤمن بأن الطعنة قد تأتيه من زوج أخته مالفن ، ورفيق الدراسة . . ذاك الرجل الصامت الجامد الملامح ، المحدود الذكاء ، الذى يمتلئ قلبه بغموض وأسرار مخيفة . . لكنها لن تصل إلى درجة الغدر بشقيق زوجته الإمبراطور إياسو الذى تولى الملك بطريقة شرعية ، مدعمة بتأييد شعبى واسع النطاق . . أجل الرأس تفرى هو الأمل المنشود . . هذا العبد المطيع لأوامر الكنيسة وطقوسها وأفكارها . . والذى يغمض عينيه عن مهازل بعض رجال الدين وانحرافهم . . لسوف يأتى غداً . . »

وعندما قدم « تفرى » سراً الى « أديس أبابا » ذات مساء استقبله ميتاوس قائلاً :

ـ« أنت مبعوث العناية الإلهية . . »

ـ « جئت أروى الأرض بدموعى ندماً على ما حدث . . » .

ـ « لا تبك من أجل ذنب أتاه غيرك » .

ـ« إننى أيها المطران العظيم على أتم استعداد لأن أحمل الصليب وأتعذب وأموت فداء للمساكين . . » .

قال ميتاوس فى إصرار :

ـ « بل لتحمل سيفك ، وتجتث أساس الفساد ، وتشفى جراح المصدومين . . لن تجدى الدموع ، فالطريق لا يمكن قطعها ، وبلوغ نهايتها إلا على أشلاء الكافرين . . »

قال تفرى فى نبرات واضحة هادئة :

-« لقد عاهدت الله أن آخذ العرش وأحمله لسدنة الكنيسة كى تفعل به ما تشاء ، إن دورى لن يخرج عن كونه دور جندى يؤدى واجبه باستماتة ، ثم يعود من حيث أتى مرتاح البال والضمير ، هانىء الذكريات ، يصلى للمسيح شكراً . . ولا شيىء غير ذلك » .

ولم يغب عن ذهن تفرى معنى العبارة التي قالها ميتاوس بعدئذ :

-« إن العرش جدير بمن يحميه ، ويحفظ له كرامته وصبغته الدينية أيها الصديق تفرى . . »

وأخذ الرجلان يبحثان الموضوع من كل نواحيه ، ويقلبان أوجه الرأي فيه ، ويرويان الاتصالات الجارية بينهما وبين قناصل الدول الأوربية الحليفة وممثليها ، والإعدادات المتصلة للمعركة القادمة ، والوقت المناسب لإشعال نيران الحرب ، وبعد أن استقر قرارهما على نقاط محددة قال ميتاوس :

- « ومتى ترحل ؟؟ الليلة ؟؟ »

قال تفرى فى خبث :

- « هل من اللائق أن أكون فى العاصمة ولا أزور صهرى؟؟» .

قال ميتاوس فى دهشة :

ـ« إياسو ؟؟ »

ـ « أجل . . إياسو . . ألا ترى أنه من الواجب أن أقدم له ولائى ، وتأكيد ثقته بى ؟؟ » .

ـ « تفرى !! أنت طاقة هائلة من الذكاء والفطنة . . يجب أن تأتى الضربة وهو مطمئن حالم ، يهيم بين السحب والشعر ، والمثل العليا ، وآبائه الأطهار من بنى قريش . . »

وسارت فترة صمت ، قال ميتاوس بعدها :

ـ« إن عيبك الوحيد ، هو زواجك من أخته مالفن . . »
ضحك تفرى ضحكة وقورة وقال :

ـ« بل إنها ميزة . . وفائدة كبرى . أكان يمكن أن أدخل قصره وأجوس خلاله كفرد من أفراد الأسرة ، وأرصد له العيون ان لم أكن زوج « مالفن » ، ثم من تكون مالفن ؟؟ إنها مجرد وسيلة ، تؤدى دورها المرسوم منذ زمن بعيد دون أن تشعر ، لا يمكن أن يتصور أحد أن الضربة قد تأتى الإمبراطور من زوج أخته . . سيدى المطران . إن مالفن لا شيئ . . لقد وهبنا الله حسن التبرير ، وصدق التفكير ، لأننا جنوده وأبناؤه . . وحماة الكنيسة وأهدافها . . » .

* * *

كانت زيارة تفرى مفاجئة، وبدا أن إياسو لم يكن على استعداد لها فى هذه الظروف الحرجة ، لقد شعر إياسو بالضيق والاضطراب ، إن رجلين على طرفى نقيض فى العقيدة والرأى والسلوك يلتقيان ، لا تربطهما غير أواصر المصاهرة ، ونظام الدولة ، وبين قلبيهما متاهات تضل فيها العقول ، وتغشى الأبصار ، وإياسو يكره النفاق والمداراة ، غير أن تفرى أدرك كل ذلك قبل أن يأتى ، ومن ثم قال لإياسو :

ـ « عفواً سيدى الإمبراطور ، على الرغم من أننى مسيحى متمسك بدينه ، وأنت مسلم متشبث بإسلامه ، إلا أن هذا لا يفسد ما بيننا من ود وصلة عائلية وطيدة . . إن تقبل الشعب الحبشى للحرية العقائدية التى رفعت لواءها قد أثلج صدرى ، ودلَّ على وعى شعبى رشيد ، والدين مسألة خاصة لا تؤثر فى علاقات الأسرة ، ونظام الحكم ، إننى أعرف أن الكنيسة قد تضايقت بعض الشيء ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة للمتحمسين من رجال الدين ، ولكنه بالنسبة للمثقفين المنفتحى العقول مثلى ومثلك أمر بسيط غاية البساطة ، إن ما يهمنا هو استقرار الأمور فى البلاد ، ولمّ الشمل ، ورفاهية الأمة ، وهذا هو غاية كل حاكم رشيد واجتماعنا على هذه المعانى يبدد الكثير من القلق وسوء الظن وأوهام الفتن . . » .

قال إياسو وقد انطلقت أساريره :

ـ « أتؤمن بذلك يا « تفرى ؟؟ »

ـ « أعمق الإيمان ياسيدى الإمبراطور » .

ـ« لشد ما تغيرت !! » .

ـ« إن الخبرات وطول التجارب تعلمنا الكثير ، وخاصة فى ذلك العالم الذى يموج بالحروب والاضطرابات . . . والحقيقة يا سيدى الإمبراطور أنه تغير طفيف ، فما زلت تفرى الذى يؤمن أشد الإيمان بعقيدته المسيحية ، لكنى لا أرى فى ذلك تعارضاً مع نهوضنا معاً بأعباء الواجب الوطنى . . والشعب كله بشتى طوائفه يرى مثل هذا الرأى ، على الأقل فى المقاطعة التى أحكمها . . لن أخدعك ياسيدى . . لقد حزنت عندما أعلنت إسلامك لكن سرعان ما أدركت الحقيقة ، فهدأ خاطرى واطمأن بالى ، ولعل قلقى كان نابعاً من خوفى . . أعنى كنت أخاف أن تنقلب على المسيحيين فتبيدهم . . لكن اتضاح الأمور قد ألغى هذا القلق ، وقضى على تلك المخاوف والشكوك ، لقد أثبتت الأيام أنك أكبر من هذه التعصبات المقيتة . . معذرة لقد ظن البعض أنك ستثأر لما لاقاه قوم أبيك فى «وللو » عندما دهمها جدك منليك . . »

قال إياسو :

- « لشد ما تعجبنى صراحتك يا تفرى !! إن الإنسان المؤمن القوي الإيمان يجب ألا يغرق نفسه فى مستنقعات الحقد والأنانية، أو يرمى بنفسه فى حمأة الثأر الأعمى ، فيطيح بالظلم والمظلوم . كان جدى منليك مسيحياً ، وكان أبى مسلماً ، وكانت أمى مسيحية . . إنها إرادة الله . . ويسعدنى أن أحمل فى قلبى نفحات الرضى من عيسى ومحمد . . إننى كمسلم الآن أؤمن بعيسى وبجميع الأنبياء . . إن الجميع أهلى وشعبى وأصدقائى سواء المسيحى منهم والمسلم . . إنى أرى فى نفسى - دون غرور - رمزاً لهذا اللقاء الأخوى بين الأديان . . »

اتسعت ابتسامة تفرى وقال :

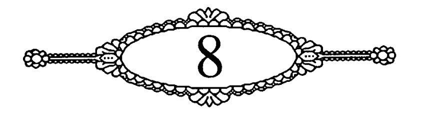
- « ما أروع كلماتك يامولاى !! »

- « لأنها صادرة من قلبى ياتفرى . . »

- « حفظك الله ونصرك . . »

وحرص تفرى على أن يشيع فى جميع الأنحاء أنه أتى لإعلان ولائه للإمبراطور وعلى الرغم من أن تلك الأنباء قد أقلقت رجال الكنيسة وسدنتها ، إلا أن ميتاوس ابتسم فى خبث وقال :

- « أيها الداهية تفرى . . لا شك أنك رجل الأقدار المرتقب . . إن عقلك الخبيث يستطيع أن يمسك بزمام الأمور فى الحبشة لعشرات السنين . . لقد رضيت عنك الكنيسة ورضى عنك الحلفاء الغربيون . . وهذا كسب لنصف المعركة مع ذلك الساذج الأبله إياسو . . . »



عاد الإمبراطور إياسو فجأة ذات ليلة فى غير الموعد المعروف ، ولم يجد زوجته بالقصر ، سأل أمه « شو أرقاش » فلم يجد لديها ما يشفى تساؤله ، واستفسر من الوصيفات ، فلم تهده إحداهن، غير أن بعض رجال الحرس قال : إن الإمبراطورة قد غادرت الباب الخلفى للقصر ومعها خادمة وحارس ، ولا يعرف بعد ذلك أين ذهبت على وجه التأكيد .

ـ « يا للكارثة . . إذن فقد صدق ما يزعمون . . كنت على يقين أنها امرأة قصيرة النظر ، فارغة القلب ، أيمكن أن يكون هناك رجل آخر ؟؟ »

اشتط به الشك ، ونازعته الهواجس ، وانتفض جسده من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وشعر بلفح كالنار المجنونة يحرق أمنه وسعادته ، نعم هى ليست المرأة المثلى التى كان يحلم بها وهى لا تملأ حياته ، ولا تروى لهفات قلبه، ومع ذلك فقد رضى بها ، وأغدق عليها ما يستطيع رجل فى مركزه وعدله وذكائه أن يغدقه على امرأة ، حاول جاهداً أن يشبع تطلعاتها ، ويملأ فراغ

حياتها ، وإن ساد علاقته بها فتور وضيق فى بعض الأوقات ، وأياً كان الأمر ، فمن المحزن أن تفكر زوجته فى رجل آخر ، كأن تترك القصر ـ وهى زوجة الإمبراطور ـ دون إذن منه ، ماذا يقول الناس ؟؟ « أفى الوقت الذى أعلن إسلامى ، وأخلص عقيدتى من أدران الزيغ والشرك . أفى مثل هذا الوقت تهوى زوجتى إلي الحضيض ، وتتمرغ فى الأوحال ؟؟ »

وفكّر إياسو فى بداية الأمر أن يكظم أساه ، ويأوى إلى حجرته صامتاً مكتئباً حتى تعود زوجته ، لأن أي تحرك قد يجلب عليه الفضيحة ، وسرعان ما يستغلها الأعداء ، ويتهامسون بها فى كل مكان ، فتزلزل قوائم عرشه، وتلصق بصفحته البيضاء النقية عاراً أي عار ، إن الأعداء كثيرون ولن يتركوا مثل هذه الفرصة النادرة دون أن يستغلوها أبشع استغلال، وهكذا وجد الإمبراطور نفسه فى مأزق حرج لا يدرى كيف يتصرف إزاءه .

وبينما كان يهرول قاصداً حجرته الخاصة ، سمع وصيفة زوجته تقول :

ـ « مولاى » . . .

أدار إليها وجهاً شاحباً وقال :

ـ « ماذا تريدين ؟؟ »

ـ« من الخيانة أن أخفى عليك شيئاً هاماً يرتبط باسمك الكبير »

ودق قلبه فى عنف ، واضطربت مفاصله :

ـ « تكلمى . . ماذا تريدين أن تقولى ؟ »

ـ « إن مولاتى قد ذهبت إلى قصر صغير ملاصق للكنيسة الكبيرة فى وسط المدينة . . هذا كل ما أعلمه . . »

هذه نقطه جديدة ، لقد كان يعلم فقط أن زوجته تغادر القصر من آن لآخر أثناء غيابه ، ولم تزد المعلومات الخاصة التى حصل عليها أكثر من ذلك ، وها هى الوصيفة تحدد بدقة المكان الذى تتجه إليه . لن ينتظر أكثر من ذلك ، لابد أن يقطع الشك باليقين، لا بد أن يداهمها فى وكر الشيطان ، إن إياسو يكره أن يبقى الأمر هكذا معلقاً دون أبعاد واضحة ، ولن يحيل قلبه مرة أخرى إلى مزرعة للشك القاتل .

والتفت إلى الوصيفة قائلاً :

ـ « ماذا تفعل هناك ؟ »

ـ « لا أدرى يامولاى . . »

ـ « كونى صريحة . . أهناك رجل آخر ؟؟ »

بهُتت الوصيفة ، وهتفت فى خوف :

ـ « هذا لم يخطرعلى بالى يا مولاى ، إننى لا أدرى حقيقة الأمر ولا أعرف أكثر من ذلك ، مستحيل أن يتطور الأمر الى هذا الحد . . . »

ـ « وما دليلك ؟؟ »

ـ « تصوُّري الخاص . . إن مولاتى تحبك أعمق الحب »

ـ « أشكرك »

لم يُضع وقته سدى ، هتف بسائق عربته ، وهرول إليها تحت جنح الظلام ، وانطلقت العربة دون أن يحيطها الحرس الإمبراطورى ، أو تدق الطبول ، أو تخلى الشوارع ، كان قلبه يلهث . وعلى الرغم من إسراع السائق إلا إنه شعر إن الوقت يمربطء ثقيل ، وأن الدنيا فى عينيه أمست ضيقة مقيتة ، إنها طعنة لم يكن يتوقعها فى هذا الوقت بالذات . . ومع ذلك ألا يمكن أن يكون الأمر كله مجرد حماقة بريئة لا ضرر منها ، ولا خطورة تكمن فيها ؟؟ إنه يدعو الله من أعماق قلبه ألا تتحقق هواجسه وشكوكه ، وأن تكون زوجته بريئة طاهرة لم تقترف إثماً ، وبدت له هذه الأمنية وكأنها أمل كبير عسير التحقيق يرتبط بوجوده ، وأنه على استعداد لأن يُقدم على أية تضحية وأن يدفع أى ثمن مقابل تحقق هذه الأمنية الغَالية . .

ـ « مولاى ها هى الكنيسة . . وها هو القصر » .

- « حسناً . . لتبعد عن هذا المكان بعد أن أغادر العربة ، ولتبق فى انتظارى حتى أخرج . . لا تكلم أحداً . . أتفهمنى؟؟»

حينما طرق باب القصر ، فوجئ بأحد رجاله حرسه يفتح له الباب ، وصاح الجندى فى ذعر :

- « مولاى »

- « ما الذى أتى بك إلى هنا؟ »

- « أنا . . أنا . . مولاى . . »

ثم جثا على ركبته ضارعاً .

- « لتغفر لى يا مولاى . . إنها خطيئة كبرى . . »

جذبه الإمبراطور من كتفه حتى وقف ، ثم هزه فى عنف وقال :

- « الإمبراطورة . . أين هى ؟؟ »

- « إنها هنا يامولاى . . بالداخل مع . . »

- « مع من ؟؟ تكلم . . »

- « مع المطران الأنبا ميتاوس »

قال الإمبراطور فى دهشة :

- « ميتاوس ؟ كيف ؟؟ ولماذا ؟؟ »

وهرول إياسو إلى الداخل ممسكاً بالحارس :

ـ « تلك هى الحجرة يا مولاى . . »

طرق الباب فى عنف ، ثم دفعه . .

كان المطران يجلس فى صدر الغرفة يغمره الضوء ، وعلى مسافة مترين تجلس الإمبراطورة الشابة ، ورجل ثالث ـ أحد القساوسة ـ ولعله سكرتير المطران يجلس على يمين سيده .

هبَّ المطران شاحب الوجه مرتعش الأصابع . وتمتم فى صوت خفيض يوحى بالخوف والقلق والحيرة : « مولاى . . » بينما صرخت الإمبراطورة فى رعب « إياسو » .

قال المطران مصطنعاً الابتسام :

ـ « إنه لشرف عظيم أن يشاركنا الإمبراطور صلاتنا ودروسنا . . »

قال إياسو :

ـ « لم يكن لى علم بذلك من قبل ، وما دعانى أحد ، وأظن أن الوعظ والصلوات ليس هناك مبرر بأن تؤدى هكذا بطريقة سرية . . »

ارتاحت نفس إياسو ، ليس هناك رجل آخر يعبث بشرفه ، وليست امرأته بالتى باعت نفسها لشيطان الجسد ، وما دام الأمر كذلك فإن أى خطأ ارتكبته بعد ذلك قد يهون ، وقال إياسو وقد استرد رباطة جأشه ، وتمالك أعصابه :

ـ « إننى أحترم عقيدة زوجتى المسيحية ، ولا اعتراض لى على أدائها الصلوات أو تلقى الوعظ ، لكن لماذا لم يخبرنى بذلك أحد ؟؟ هل من اللائق دينياً وعرفاً أن تترك الإمبراطورة قصرها دون علم زوجها ؟؟ إننى لم أفرض على زوجتى عقيدتى، وتركت لها الخيار ، ومن ثم فلتؤد شعائرها فى الوقت الذى تشاء . . ومع ذلك فإنى أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك . . »

شهقت الإمبراطورة باكية ، وأسرعت نحو زوجها ، وارتمت تحت قدميه مستغفرة نادمة :

ـ « ارحمنى يا إياسو ، لم أستطع أن أعصى أمر أبانا ميتاوس لأنه أمر الله ، إننى حائرة . . معذبة . . بائسة . . ارحمنى يا إياسو » .

قال الإمبراطور فى هدوء ، وهو يرمق ميتاوس بنظرة عاتبة :

ـ « هيا بنا أيتها الزوجة الفاضلة . . كفاك صلوات ووعظيات الليلة . . فليسمح لنا الأب ميتاوس » .

تقاطرت حبات العرق على جبين ميتاوس ، وشعر بحرج بالغ ، وتمتم :

ـ « إننى بمثابة الوالد لكم جميعاً . . ربما أكون قد جانبت الصواب . وكان علينا أن نطلب منك الإذن بذلك . . ولهذا فأنا أقدم اعتذارى » .

ولم ينس أن يقول :

ـ « ومع ذلك فإن الأمر مجرد صلوات ووعظيات . . »

وقال للإمبراطورة :

ـ « أليس كذلك ؟؟ مجرد صلوات ووعظيات »

فلم تجب الامبراطورة ، وتركت الحجرة مطأطئة الرأس ، دامعه العينين ، حزينة الفؤاد تكاد تسقط إعياء ، بينما هز إياسو رأسه فى وقار وهو يقول :

ـ« عمت مساءً أيها الأب ميتاوس . . إلى اللقاء . . »

وانطلقت بهما العربة عبر الشوارع ، وقد ران عليهما صمت ثقيل ، وأنين الإمبراطورة الخافت ، يتناهى إلى سمعه برغم الضجة التى تثيرها العربة ، ورأس إياسو نهب لدوامات عنيفة من التفكير . « هذه الحمقاء تجلب لى المتاعب ، وترتكب المزيد من الحماقات ، لقد حاولت جاهداً أن أعاملها كإنسانة حرة . وأن أغدق عليها ما أستطيعه من حب واحترام ، كنت مؤمناً أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، وظننت أن تآلف الإمبراطور المسلم والإمبراطورة المسيحية فيه معنى كبير لا يخفى على ذوى العقول ، لكى أضرب المثل لهذا الشعب . . المثل الذى يجب أن يعيه جيداً . . أنه فى الإمكان أن تحيا العقائد الدينية متآلفة متآزرة دونما تعصب أو جمود أو كراهية . . »

وعندما ضمتهما حجرتهما الخاصة ، قال الإمبراطور :

- « ماذا كنت تفعلين هناك؟ »

انفطرت دموعها من جديد ، وعادت لطلب الرحمة والصفح والاعتراف بالخطأ .

فقال إياسو مصّراً :

- «يجب أن أعرف الحقيقة . . »

- « كنت ألتمس البركات ، وأؤدى الصلوات . . »

- « هذا ما يجب أن تقوليه ، أما الشيء الآخر ؟؟ »

- « ماذا تقصد ؟؟ »

صرخ فيها بحدة :

- « أنت تكذبين . أنت تجعلين من الصلاة ستاراً تخفين وراءه القذارة والعفة . . »

- « لا شيء أكثر من الصلاة يا إياسو . . »

- « تكذبين للمرة الثانية ، وليس ذلك من طبع المرأة الصالحة التى تحرص على تأدية شعائر دينها » .

لم يكن إياسو من السذاجة بحيث يصدق زعمها أو زعم ميتاوس ، كان واضحاً أن الأمر أخطر من الشعائر والوعظ ، وميتاوس ليس بالرجل الهين ، ولم يغب عن فطنة الإمبراطورة

أن اعترافها بما جرى بينها وبين المطران قد يهدم كل الثقة المتبادلة بين زوج وزوجته ، إنها مأساة بشعة تعيشها امرأة تحب زوجها ، وتجلس إلى جواره على أعلى قمة فى البلاد ، لقد ضاق حولها الخناق ، فإذا أصرت على قولها ، فهى كاذبة تخون قداسة الرباط الزوجى ، وإذا تكلمت الحق فـفى ذلك هو الآخـر الاعتراف بالتآمر والغدر .

قالت الإمبراطورة :

ـ « ليس هناك رجل آخـر يسكن قلبى ، لم أطعنك فى شرفك . . »

قال إياسو محتداً :

ـ « إن هذا الكلام نفسه يثيرنى ، أنا على يقين تام من أنك لم ترتكبى حماقة من هذا النوع . . »

ـ « ليس لدى ما أضيفه يا إياسو الحبيب . . ألا ترحم عذابى لقد أخطأت وهذا يكفى . . »

قال فى أسى :

ـ « إنك تصرين على عنادك . ومـا أظن الحـيـاة بيننا يمكن أن تسير على هذا المنوال ، فلا زواج بغير ثقة ، ولا حب بغير صراحة ، وأنت تدمرين أحلام الحب والسعادة والثقة التى كنت تنعمين فى ظلالها . . إننى أحمِّلك تبعة ما أقدمت عليه من طيش . . » .

وعـاد الصـمت يلف الحـجـرة من جـديد ، ومـضت بضع دقـائق، كـانت الإمبـراطورة خـلالهـا تعـبث بأناملهـا تارة ، وبخـصـلات شـعـرها تارة أخـرى، وعـيناها مـا زالتـا مبللتين بالدموع، بينما بقى إياسو شارداً ، ثم قال وهو يهم بالخروج من الحجرة :

ـ « ليس الأمر لغزاً كما تتوهمين ، ففى إمكانى أن أتصور ماذا يمكن أن يحدث بينك وبين ميتاوس . فهناك مشكلة واحدة تهم المطران وسيظل يفكر فيها ، ويحوم حولها ، ويبحث لها عن حلول . . المشكلة هى ببساطة هذا النجاشى المسيحى الذى أعلن إسلامه . . هذا هو كل شيء . . »

لحقت به الإمبراطورة عند باب الحجرة وقالت :

ـ « الى أين ؟؟ »

ـ « سأنام فى حجرة أخرى »

ـ « أتتركنى وحدى يا إياسو؟؟ »

ـ « إننى أكره النفاق والمصانعة . . والكذب أيضاً . . ومن ثم فلست بقادر على أن أبقى مع هذه الرموز السوء فى حجرة واحدة . . »

قالت فى حزن :

ـ« لا تكن قاسياً يا إياسو . . إننى أخطأت ، أنت تعرف كل شيء . . لقد أقسمت بالإنجيل أن أحتفظ بالسر . . كانت خدعة ماكرة ، لقد أخبرنى ميتاوس أن العذراء تجلت له فى خلوته ، وقالت له عليك بالإمبراطورة إنها هى مفتاح الخير للمسيحيين . . فعن طريقها تستطيعون إعادة الهارب من جنة يسوع . . لم أفهم ـ إلا أخيراً ـ أننى مجرد جاسوسة على زوجى لقد طلبوا منى بعض الأوراق والمستندات فقدمتها لهم كأمر العذراء . . وسألونى عن أكلك وشربك ، ونومك ويقظتك وأفكارك وأصدقائك وأعدائك . . سألونى عن كل شيء . . كانوا يؤكدون لى أن هذا من أجل مصلحتك ومصلحة البلاد العليا . . لكم يعز عليهم وعلىَّ أن تحرم من جنة يسوع فى العالم الآخر . . لم أتصور أن يقذف إياسو حبيبى إلى الجحيم مع العصاة والمذنبين . . ومن ثم قدمت لهم كل ما يريدون . . »

تمتم إياسو فى أسى :

ـ « الجنة ليست إقطاعية لميتاوس . . إنها جنة الله . . خالق يسوع وميتاوس . وبارىء الأرض والسماء والناس بمختلف مللهم ونحلهم . . هؤلاء المتعصبون هم الجحيم بعينه . . أتفهمين ؟؟أى زوجتى الإمبراطورة التعسة يؤسفنى أن أقول :

« أنت طالق . . »

صرخت كالمجنونة :

ـ«مستحيل . . مستحيل . . إياسو . . ملعون هذا المدعو ميتاوس . . ملعون كل شيء إننى أريدك أنت . . أنت حياتى وجنتى وروحى . . إياسو . . إياسو . . »

لكنه صفق الباب فى عنف بعد أن خرج . .

بينما قدمت أمه « شو أرقاش » لتستجلى حقيقة الأمر ،

وتمتم بينه وبين نفسه :

ـ « إن الخـونة عـقـوبتـهم الإعـدام . . أو الطلاق على الأقل . . »

وتذكَّر إياسو ذلك المشهد الخالد فى رواية شكسبير « حتى أنت يا بروتس!! »



أرسل « تفرى »إلى الأنبا ميتاوس رسالة خطيرة رداً على إحدى رسائله قال فيها تفرى :

« عزيزى المطران الأعظم ، تلقيت ببالغ الغبطة والسرور رسالتكم الأخيرة ، وشدنى إليها ما استطعت الحصول عليه من مستندات ووثائق خطيرة ، جلبتها لنا زوجة الامبراطور ، تلك المرأة الصالحة ، التى سيكون لها دور بارز فى تاريخ شعبنا ، ولقد دهشت أيما دهشة عندما تلقيت تلك المعلومات ذات الأهمية الخاصة والمتعلقة بالمفاوضات « السرية » التى كانت تدور بين الامبراطور « إياسو » اللعين وبين قنصل تركيا ، والتى فحواها أن إياسو على استعداد تام لتلبية طلبات تركيا ، تلك الطلبات الخاصة بمساعدتها فى الحرب ضد الإنجليز وحلفائهم من الغربيين، لست أدرى كيف سولت نفس هذا المأفون له أن يطعن الحلفاء الغربيين هذه الطعنة النجلاء ، فى هذا الوقت العصيب بالذات ؟ إن الأمر واضح جلىّ فإياسو يتعاطف مع تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدافع دينى لا يخفى على أحد ، وهل نسيت أنه كتب على علم الدولة عبارة « لا إله

إلا الله محمد رسول الله » ؟وهل نسيت أنه قدم ذلك العلم الجديد هدية لقنصل تركيا فى أديس أبابا ؟؟ أنه يتصور أن تركيا تخوض حرباً مقدسة ضد الصليبية فى أوربا بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى ، ونسى هذا الامبراطور الأبله أن تركيا فى الماضى قد اكتسحت شرق أوربا ، ونشرت الإسلام فى ربوعها ، وأذاقت أهلها الهوان ، وأنها ظلت لعدة قرون تقف صامدة قوية ، تحول دون الزحف المسيحى إلى الشرق ، بل إن سلطان تركيا قد امتد حتى شمل مساحات شاسعة من إفريقيا وأوربا ، لقد آن الأوان لكى نتخلص من هذه الامبراطورية التركية العنيدة العتيدة ، بعد أن أصبحت على حد تعبيرنا « الرجل المريض » ، وبعد أن انحرف سلاطينها ، واستبدوا بشعوبهم ، والآن ، يأتى إياسو ليساعد هذا العدو اللدود! إن فى ذلك خيانة أبشع من خيانته للديانة المسيحية نفسها بل إن هذين التصرفين الأحمقين ليسا سوى وجهى عملة واحدة ، ولقد أسعدنى أنك بادرت وأطلعت أصدقاءنا من الإنجليز والفرنسيين على هذه الوثائق الخطيرة ، ولقد وصلتنى أنباء أكيدة عن ذعرهم لهذه الوثائق ، واهتمامهم الزائد بها . . لقد أصبح مؤكداً لدى الجميع أن « إياسو » نكبة من النكبات العظيمة التى دهمت تاريخ الحبشة ، وأن هذا الامبراطور الأرعن يجب الخلاص منه فى أقرب فرصة

ممكنة . . . ومن ناحيـة أخرى فقـد أسـعـدنى هذا التـصـرف الأحمق منه لعدة أسباب :

أولها : أنه قد وضع أصدقاءنا الغربيين فى موقف لا يحتمل السكوت ، بل لا بد أن يتحركوا معنا بكل قوة وإخلاص ، وأن يواجهوا هذا الخطر الداهم ، قبل أن يبعث إياسو إلى تركيا بالمال والرجال والمؤن واللحوم وغيرها .

وثانيها : أنه قد شغل نفسه بجبهة أخرى يستنفد فيها طاقته ، إذ لا شك أن اشتراك إياسو فى هذه الحرب سوف يتيح لنا فرصة أكبر لتدبر أمره ، وإحكام الضربة ضده .

وثالثها : أنه سوف يمتص فائض دخل الأمة فى حرب بعيدة عنه ، وهذا يعطينا فرصة لإثارة الناس وخاصة العناصر المسيحية ضده ، ومن ثم لا بد أن نبين لهم أن هذه الحرب واشتراكهم فيها ، سوف تعود عليهم بالفقر والدمار ، بالإضافة إلى أن تحركه للحرب فى صف تركيا سوف يبطل دعواه فى حب السلام والرفاهية والحياة بين القوى المتصارعة فى الداخل أو الخارج . .

سيدى المطران الأنبا ميتاوس . .

إن صحَّت الأنباء القائلة بأن إياسو سوف يسافر إلى الجنوب لتجميع جيش ضخم للحرب ، فإن هذه ستكون فرصتنا الأولى

والأخيرة ، سيكون هو فى الجنوب ، وسيكون أبوه فى مقاطعة « ولـلو » . . . وستكون أديس أبابا بلا إمبراطور أو خطة للدفاع، وسينقض عليها رجالنا فى حراسة الله ، ومع الجموع المؤلفة من رجال الكنيسة ، حيث تدق الأجراس فى الكنائس. . أجراس النصر . . وختاماً . . ولنا عودة . . ؟؟

***

طوى ميتاوس الخطاب ، وتحسس لحيته شارد النظرات ، مكدود الفكر ، يستعيد بذاكرته ما كتبه الرأس «تفرى » ، لشدما يبهره تفكير تفرى ودهاؤه ، إن هذا الرجل ذا القلب القاس، هو رجل المعركة الحاسمة بلا منازع ، إن رجل الحكم لا يصح أن يكون ملاكاً وإلا تمرد السفلة ، واستعلت إرادة المفكرين ، وساد البله والتسامح ، ونحن أحوج ما نكون إلى القسوة و العنف كى نقضى على ذلك الانتشار الإسلامى البغيض الذى أشقانا طوال القرون الماضية . . أنا لا أكاد أصدق التاريخ ، كيف جاء يوم كانت فيه بالحبشة سبع مقاطعات إسلامية صرفة ؟ وكيف يبلغ عدد المسلمين فى الحبشة ثلاثة أرباع السكان ؟؟إنها لكارثة كبرى ، بل إنها لداء وبيل لا يشفيه التسامح والإخاء ، لا شيء غير القوة . . القوة وحدها هى القادرة على ردع الفكر الإسلامى ، وتشتيت التجمع المحمدى الخطر ، ووقف غزو

اللغة العربية وحضارتها . . . إن إياسو لعنة هبطت علينا من السماء . . ولا نجاة إلا بالرأس « تفرى » . . إنه السيف الصارم الذى لا يرحم ، والقلب الحديدى الذى لا يرق ، والعيون المتحجرة التى لا تدمع . . .

وكفَّ ميتاوس عن التفكير حينما رآها تدخل عليه ، هتف مندهشاً :

- « الإمبراطورة . . . »

قالت وقد كشفت خمارها :

- « أتيت اليك يا أبتاه خائبة تعسة . . . »

-« لكن الإمبراطورقد يأتى فى أية لحظة . . »

- « لا تخف . . . »

قال مضطرباً :

- « خبرينى . . هل عرف الحقيقة ؟؟ »

- « أجل . . كل شيء . . »

- « كيف ؟؟ لقد أقسمت على الإنجيل أن تخفى سرنا . . »

- « أنت يا أبتاه لا تفكر إلا فى نفسك وأغراضك . . »

ضرب كفًّا بكف ، وهتف :

- « لقد ضعنا . . إن اعترافك أوقعنا فى ورطة خطيرة لا

نجاة منها ولا مهرب كيف تتصرفين هذا التصرف ؟؟ لقد ضعنا . . »

قالت في غيظ :

ـ « أنا التى ضعت . . لقد فقدت كل شيء . . لقد طلقنى الإمبراطور . . طلقنى يا أبتاه وأنا أحبه . . »

هز الأنبا رأسه ، بينما انفجرت الإمبراطورة باكية ، وقال ميتاوس :

ـ « ألم يخبرك ماذا سيفعل بنا ؟؟ »

صرخت : قلت لك لقد طلقنى . . ألا تهزك هذه الكلمة ؟؟إنها تجعل جسدى كله ينتفض . . إنها أفظع من الموت . . طردنى من قصره . . لن أراه بعد اليوم . . إن إياسو حبيبى لم يعد لى . . ألا تهزك هذه الفجيعة ؟؟ إنى أشعر أن العالم كله قد استحال الى سواد . . أيامى لا معنى لها . . أنا لا شيئ أصبحت جيفة . . كومة من أسى وعذاب وضياع . . لقد طلقنى يا أبتاه . . »

ثم ألقت برأسها على كتف المطران منتحبة ، تبلل ثيابه بدموعها المنهمرة . .

« لا عليك يا ابنتى . . إن السماء تفتح لك أوسع أبوابها . . والعذراء تبتسم لك فى عزاء . . إنه تعس خاطئ لا يعرف الحق . . لقد نجوت إذ كيف كنت تعاشرين رجلاً مسلماً لا يؤمن بيسوع . . »

قالت وكأنها لم تسمع شيئاً مما قال :

ـ « لِمَ لا تصلى من أجلى يا أبتاه ؟! فلتدع العذراء أن تعيدنى إليه إلى إياسو حبيبى . . إننى أحبه برغم كفره . . »

قال ميتاوس فى جفاف :

ـ « إن العذراء ترفض أن تعود الطاهرات التائبات إلى المدنسين الخطاة . . »

قالت والدموع تترقرق فى عينيها :

ـ « إن العذراء تقسو علىّ . . لا يرضيها أن يتحطم قلبى . . فلترتل الضراعة إليها فلعلها ترق لى . . إن يسوع ابنها كان يحيى الموتى ، ويشفى المرضى ، ويصفح عن الخاطئين ، ويحمل آمال البشر وخطاياهم ، ويفديهم بحياته . . فلتعدنى العذراء الى إياسو . . »

قال ميتاوس وهو متوتر الأعصاب :

ـ « أنت لا تحبين إياسو . . »

ـ « بل أحبه . . ليس فى قلبى غيره » .

ـ « اصمتى يا عاشقة المجد . . أنت تحبين اللقب الضخم والقصر الكبير ، والحراس والحجاب ، وهيلمان الإمبراطور . . والذهب والجواهر . . وكل هذه المظاهر إلى فناء . . . »

ـ « بل أريده وحده بلا مجد ولا قصور ولا سلطان ، لو كان متسولاً يحمل غرارة على ظهره ، ويستجدى الموسرين لما أخذت سواه »

قال ميتاوس وأنفاسه تتلاحق :

ـ « لن تعودى إليه . . إنه لا يعرف الصفح ولا الرحمة . . »

ـ « لأنى خنته . . »

ـ « ولأن إرادة الله ترفض أن تعودى إليه . . أي بنيتى يجب أن تعلمى أنك قد أديت واجبك المقدس نحو الله والوطن ، وأنك قد ضحيت بنفسك فى هذا السبيل ، وأنت لا تقلين منزلة عند الله من القديسيين والشهداء . . . أى بنيتى . . . إنها إرادة الله الأخيرة . . يجب أن تفكرى فى الذهاب إلى الدير كي تترهبى . . إنك بذلك تبدئين الخطوة الأخيرة والحاسمة نحو ملكوت السماوات . . »

أطالت النظر إلى المطران ، وهتفت فى وهن :

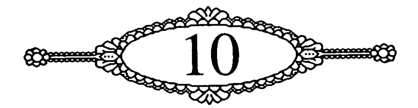
ـ « اغفر لى يا أبتاه »

ـ « ماذا أغفر لك ؟؟ »

ـ « لتغفر لى خيانتى . . فقد خدعت أعظم رجل فى الحبشة . . خنت إياسو حبيبى . . فهل ترضى عنى السماء ؟؟ »

ـ « إذهبى عنى . . لقــد التــاث عــقلك ، واضطربت أعصابك . . إذهبى ودعينى أفكر فى حل المشكل الذى تسببت فيه بيننا وبين الإمبراطور . . »

خرجت الإمبراطورة تجر حطامها ، أنغام حزينة تهوم فى رأسها المتعب ، خيالات غامضة تمر بذاكرتها ، وفارسها الأسمر قد تركها وولى فوق جواد أشقر ، وخلفه عروس من حور العين تترنم بأنغام علوية إياسو . . إياسو . . إياسو . . طرْ بنا نحو السحاب ، دارت الأرض بالإمبراطورة ، واختلطت الصور فى ذهنها المشوش ، ولم تعد ترى أو تعى شيئاً ، فارتمت لدى عتبة الباب مغمي عليها ، وهى تردد بصوت واهن حالم « إياسو . . . إياسو . . . » .



لقد ساد القصر الإمبراطورى كثير من التوجس والاضطراب منذ أعلن إياسو إسلامه ، فإن شوأرقاش التى كانت تتردد بين « وللو » وأديس أبابا ، لم ترتح كثيراً لهذا التصرف ، وأبوه « ميكائيل » سُرَّ لذلك أيما سرور ، وإن شعر بصعوبة الأمر ، ولعله كان يرى أن « إياسو » قد تعجل بعض الشيء ، إذ كان يجب أن ينتظر حتى تتوطد سلطاته ، ويستقر أمره ، والأميرة « زوديتو » خالة إياسو ، وابنة منليك رفضت هذا التصرف رفضاً قاطعاً ، ولم يزد الأمر عن مجرد المعارضة الشكلية . فبقيت علاقتها بإياسو طيبة لم يشبها كدر حقيقى ، أو عنف فى المؤاخذة ، وزوجها « غوغسا » كان يرى أن فى تصرف إياسو إهانة للكنيسة ، وضربة قاضمة للمجتمع المسيحى فى الحبشة ، وأن ذلك سوف يجلب عليه المتاعب . واصطخب الحوار والنقاش الحاد فى أروقة القصر بين أفراد الأسرة، كما احتدم بين الخدم والحرس ، فترك ذلك كله أثراً بالغاً فى الصفاء الأسرى ، والاستقرار النفسى . وزاد الطين بلة ذلك التصرف الغريب الذى أقدمت عليه زوجة الإمبراطور ، عندما تعاونت

مع ميتاوس ، وكشفت له عن أسرار زوجها ، ونقلت إليه بعض المستندات والأوراق الخطيرة ، مما نتج عنه طلاقها ، فكان هذا الحادث مثل إسلام إياسو . إذ وجد فيه المتعصبون والحاقدون وأعداء الإمبراطور ، فرصة ذهبية كى يملأوا منتديات « أديس أبابا » وأنحاء الحبشة بالترهات والأكاذيب التى تناولت شخصية الإمبراطور . وأثارت الشبهات حول سلوكه وسلوك زوجته ، ولا شك أن ذلك كله أثَّر فى سمعة الأسرة الحاكمة ، وألقى ظلالاً من الشك وعدم الثقة فيها ، فقد حرصت الكنيسة وعملاؤها ، كما حرصت الدوائر الأجنبية ، والهيئات التبشيرية على بلبلة الأفكار باختلاق الأكاذيب والمزاعم التى لا تقوم على أساس حقيقى .

وأمام هذه العاصفة القاسية من الحقد والتشنيع المرير بقى إياسو قلقاً حائراً يفكر . ماذا يفعل ؟؟وكيف يواجه هذا التيار الغاضب من الافتراء والتحدى ؟ أيضرب الكنيسة ضربة لا رحمة فيها ولا هوادة ؟؟ أيطارد المغرضين ، ويمزق شملهم ويلقنهم درساً فى الأدب والإخلاص ؟؟ أيطرد بعثات التبشير ، وقناصل الدول المعادية ؟؟ لا . . لن يفعل ذلك ، لن تستطيع أية قوة فى الوجود أن تحيد به عن الخط الذى رسمه لنفسه . لن يخرج عن سياسة التسامح والإخاء ، ولسوف يصفح عن خطايا

الكنيسة ومؤمراتها الحاقدة، لن يفتح الطريق لفتنة دامية قد تشعل النارفى أمن وطنه . وتهدد كيانه الآمن . ولسوف يخرج إلى الناس ليوضح لهم ، بقدر ما تسمح به الظروف ، الحقائق ، سيقول لهم إن أعداء الحرية والتسامح والإخاء يأبون إلا أن يجروه إلى طريق الدماء والعنف ، ولكنه لن يمضى فى هذا الطريق برغم الإثارات والتحريضات، لأن تسامحه أقوى من حقدهم ، ولأن إيمانه بمبادئه لا تزعزعه الأعاصير والتدابير الشيطانية ، إنه قادر على أن يضرب بشدة ، وقادر على أن يخرس الألسنة المغرضة ، والإشاعات الكاذبة ، ولكن سلوكه ومنهجه سوف يحبطان مكائد الكائدين .

والحقيقة أن إياسو كان يكبح جماح نفسه ، ويمنعها من الزلل والاندفاع ، وجاء إليه أبوه ميكائيل (محمد على) ذات يوم ، وقال له :

ـ « أعرف يا إياسو أنك تعانى من أزمة نفسية عاتية » .

ـ « هذا حق يا أبتى . . لكن تحررى من إسار الوهم والخوف، وإعلان إسلامى على الملأ قد أراحنى كثيراً . . إن تعبيرك عما يجيش فى صدرك دون خوف ، وفى ظروف حالكة كهذه شيء عظيم . . إنه ميلاد جديد . . غير أن ما أقدمت عليه زوجتى من حماقات قد أثارنى إلى أبعد الحدود . . قد أفقدنى الثقة فى كثير من الناس . . »

ـ « أجل يا إياسو . . كانت لعبة دنيئة ماكرة . . »

ـ « إن بعض أسرار الدولة العليا قد وقعت فى يد ميتاوس ، وأنت تعلم أنه على صلة وطيدة ببعض قناصل الدول . . تصور . . لم أجد محاضر الاجتماعات الخاصة بالتعاون مع تركيا ، إنه لأمر يدعو للأسى والضيق البالغ . . لسوف أتجاهل ميتاوس ، ولن أفاتحه فى شيئ . . »

قال ميكائيل :

ـ « إن شعبنا طيب ، ويذكر دائماً الأيادى البيض التى تقدم إليه . . وكثير من الأكاذيب التى يروج لها الأعداء تسقط دبر أذنيه . . لكنه لا يصح أن يعانى من فراغ . . تماماً مثل قصر الامبراطور هو الآخر لا يصح أن يعانى من فراغ . . »

قال إياسو :

ـ « ماذا تعنى ياأبى ؟؟ »

ـ « أعنى ، أن تتزوج . . يجب أن تملأ الفراغ الذى تركته زوجتك السابقة . وبالتالى سيجد الشعب عوضاً ، سيجد قصة جديدة قد تحل محل الترهات القديمة التى تروج لها الكنيسة والأعداء ، الفراغ ، إن لم تملأه بالعناصر الطيبة والفكر الحيّ ، ملأه الحاقدون بالافتراءات والأكاذيب . . أتدرك ما أرمى إليه ؟؟ »

عاد إياسو يقول :

ـ « إننى أنتظر رسالة من أمير هرر الأمير محمد عبد الله . . لقد رأيت ابنته . . لشد ما أعجبت بدينها وسماحتها وذكائها وجمالها أيضاً. لكأنما ولدت لتكون زوجتى . . »

ضحك أبوه قائلاً :

ـ « إنها إمبراطورة قلبا وقالباً . . ثم إنها لن تخرج من القصر لتلتمس البركات من مصدر آخر . ولن تسرق الوثائق . . ولن تكون موّزعة الولاء . هذا ما أتمناه . . إن سمعة أبيها وأسرتها فوق الشك والريب . . »

وشرح إياسو لأبيه كل ما يحيط بالزواج من ملابسات ، وأكد له أن هذا الزواج قد يتم خلال أيام قليلة ، ولم تكد تمضى أيام قليلة فعلاً حتى صرح مصدر إمبراطورى أول تصريح رسمى عن زواج إياسو من ابنة أمير هرر ، فسرى النبأ فى كل مكان ، وغطى على ما عداه من الأنباء والترهات والشائعات . .

وتمتم الأب « ميتاوس » لمن حوله قائلاً :

ـ « إن عدد المسلمين فى القصر يزيد واحداً من آن لآخر . لم يبق إلا أن يجلب إياسو لنفسه أمّاً جديدة تكون مسلمة . . إن هذا الخبيث يخطط لبعيد ، لكننا سنقف بالمرصاد لكل

مخططاته . . إن هذا الإمبراطور منذ جاء يشغل الأمة بأفكاره وأفعاله ، لا يكاد يمر شهر دون أن يكون هناك جديد » .

وجلس ميتاوس يجتر أساه ، ويصر على أسنانه فى غيظ ويهمهم : « لماذا حدث كل ذلك فى عهدى ؟؟ لسوف يكون ذلك سبة فى تاريخى الشخصى وتاريخ الحبشة ما لم أفعل شيئاً ، أيقال غداً إنه فى أيام ميتاوس ، أعلن الإمبراطور المسيحى إسلامه ، ووقف المد المسيحى ، وزاد عدد المعتنقين للإسلام ، وتوقفت الحملات التأديبية ضد المسلمين ، وقويت شوكة اللغة العربية ، وزاد عدد المساجد ، وقيدت حركات الهيئات التبشيرية ؟؟ يا للمهزلة » . .

ودخل أحد الخدم وقال :

ـ « الإمبراطورة قادمة . . . »

صاح فى حدة :

ـ « ما الذى أتى بها الآن ؟؟ أتراها جاءت لتذرف أمامى الدموع ، وتقول أن إياسو سيتزوج ابنة أمير هرر ، وأنها تحملنى تبعة ما حدث . . »

وجاءه صوتها من خلف الخادم :

ـ « معذرة يا أبتاه ، ما جئت لأذرف الدموع ، ولا لأعترض على زواج إياسو ، فأنا أستحق ما حدث . . إن المسئولية كاملة

تقع على عاتقى وحدى إن تحريضك لم يكن كافياً لكى أسقط . . »

هتف ميتاوس :

ـ « تسقطين ؟؟ »

ـ « أجل يا أبتاه . إنها سقطة كبرى . . لقد عرفت كل شيء . . قرأت الإنجيل وشروحه القديمة ، فصدمتنى حقيقة مرة . . إنكم أبعد ما تكونون عنه ، إن لكم تفاسيركم وشروحكم الخاصة . . لقد عرفت فى النهاية أن طريق الله مفتوح أمام الجميع دون وساطة أحد . . ليس من الضرورى أن أبحث عمن يأخذ بيدى إلى الله . إن كتاب الله هو المرشد والدليل ، وإن الوسطاء كثيراً ما يحرِّفون الكلم عن مواضعه ، وإن كلماتهم المكتوبة تلتزم الحذر ، لكن كلماتهم المنطوقة تنطلق دون تحفظ . . وهم يخاطبون الناس بلغات مختلفة ، أنا مثلاً أستسلم لأوامرك عندما أعلم أنها أوامر السيدة العذراء . . فى إمكانك أن تخدعنى ، لكن من المستحيل أن تخدع إياسو . . لأن روحه حرة ، وفكره منطلق ، ويحسن التعبير عن ذاته . . لا يرهب القلق ولا يتبرم بالحيرة . . إن نار القلق المقدسة لا تحرقه ، ولكنها تدفئ قلبه ولهذا انتصر . . جئت لأقول لك إننى أحترم إياسو وما زلت أحبه . . مع أننى باقية على دينى ، ولن أعتنق الإسلام » .

وصاح الأب ميتاوس في حدة :

ـ « أجئت هنا لتقولي هذا الكلام ؟؟ كان أحرى به أن يسمعه إياسو لعل قلبه يرق لك ، فيعيدك إلى قصره ».

قالت الإمبراطورة السابقة :

ـ « لا يهم . . إن إياسو يعيش في قلبي وروحي . . إنه معي في كل لحظة من الليل أو النهار ، وإن تباعدت أجسادنا ، أنا لا يهمني الإقامة في قصره ما دام هو يجلس على عرش قلبي . . إنني مؤمنة بأن أية قوة في الوجود غير قادرة على انتزاعه مني . . إنني أملك كل شيء لأن روحي أصبحت عامرة بالإيمان الحقيقي والحب الأصيل . . لقد حاول المسكين ردحاً طويلاً من الزمن أن ينمي قلبي بهذه الحقائق ، وأن يقنعني بأن الزواج ليس جسداً فحسب ، وأنه ليس بالحب وحده يحيا الإنسان ولكنني كنت غافلة . . ليكن . . أنا لا يهمني ما حدث ما دمت قد وصلت إلى الشاطئ الآمن . . إلى الإيمان الحقيقي بالله . . إن إياسو الحبيب سيظل أعظم رجل في تاريخ الحبشة حتى ولو أزلتموه عن عرشه غداً . . لأن عرشه ليس من أحجار وجواهر وحرير . . » .

هبَّ الأنبا ميتاوس واقفاً وقال :

ـ « ماذا تريدين ؟؟ »

ـ « لقد عرفت يا أبتاه ما أريد . ولسوف أنصرف قبل أن تطردنى . . »

ـ « على ألا تعودى إلى هنا مرة أخرى . . »

ـ « لا يهم . . لأن رحاب الله أوسع من رحابك ، وهو لا يطرد أحداً من ملكه . . حتى العصاة والخطاة لا يغلق فى وجوههم بابه . . »

صرخ ميتاوس :

ـ « هيا أخرجوها من هنا ، لا أريد أن أرى وجهها بعد الآن . . مطرودة من رحمة الله هى . . »

ـ « رحمة الله من حق الله وحده . . الله يرفض أن يكون له شركاء فى ملكه . . ».

وحدث هرج ومرج ، وتجمع كل من بالمبنى من القساوسة والرهبان والراهبات ، وأخذوا يرقبون المشهد المثير فاغرى الأفواه ، خافقى القلوب ، وهم يتساءلون :

ماذا جرى ؟؟ لماذا كثر التمرد ، وعصى الناس رجال الدين المقدسين ، حتى الأنبا ميتاوس تصرخ فى وجهه امرأة ، فيزايله وقاره ، ويفارقه حلمه المعهود ؟!

وشقَّت المرأة طريقها وسط الحشد الكبير مرفوعة الرأس ، وقد عَلقت قطرات دمع بأهدابها الطويلة ، ثم قصدت عربتها ، وانطلقتَ بعد أن أثارت العجلات المسرعة زوبعة من التراب .

وأقيمت الزينات ودقَّت الطبول وارتفعت الأعلام المكتوب عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وتبادل الشعب التهانى بمناسبة زواج الإمبراطور من ابنة أمير هرر .

ولقد كان فرح المسلمين خاصة غامراً فياضاً . كانوا يشعرون أكثر من غيرهم أن الإمبراطور إمبراطورهم ، وأنه إحساس لا يمكن مقاومته . وخاصة فى ذلك البلد الذى قاسى فيه المسلمون الكثير من العبث والمظالم والانتقام الدموى الرهيب على فترات متقاربة من التاريخ . ولم تكن خطب « إياسو » ، ولا دعواته إلى الأخوة والتسامح والحرية العقائدية ، بقادرة على أن تصفى تماماً ما يضطرم فى النفوس من مشاعر دينية ، ويكفى أنه وقف حائلاً دون أن تتحول هذه المشاعر الدينية إلى انتقام وقلق واضطرابات . .

وهى خطوة انتقالية لكنها هامة ومؤثرة ، لأن التصفية النهائية للعقد الدينية ، المرتبطة بالوقائع الدامية ، والاضطهادات المريرة تحتاج إلى مزيد من الوقت والتثقيف والتربية . . فهى عملية تحول نفسى بطىء .

***

قال إياسو لزوجته الجديدة :

- « ما هى أعظم أمنية لأحققها لك ؟؟ »

قالت فى خفر وحياء :

ـ « أن أراك مؤمناً راضياً »

ابتسم فى سعادة غامرة وقال :

ـ « إنه شيء يتعلق بى أكثر مما يتعلق بك ، أريد أن أبذل شيئاً من أجلك فإذا بك تتمنين شيئاً لى . . »

ـ « أنا أنت ، وأنت أنا . . »

ـ « امرأة فى عز شبابها تتحدث كالمتصوفين . . »

ـ « لا أفكر فى ذلك يا إياسو الحبيب . . . إننى فقط أترجم بصدق عما يشعر به قلبى ، ويؤمن به عقلى . . إن زوجة الإمبراطور يا إياسو الحبيب يجب أن تكون أكثر من زوجة ، وأكثر من امرأة ، وأكثر من حبيبة . . إنها ذات رسالة خطيرة . . »

قال مداعباً :

ـ « هل حفظت ذلك عن أبيك ؟ »

ـ « بل تلقيته عن أمى . . ثم رأيته يحدث أمام عينى فى قصر أبى فى هرر . . آه . . طبعاً أنت تعلم ما كانت تقاسيه هرر من موجات الغزو الصليبى الأحمر . . لكأنها كانت دائماً ميدان قتال . . »

ووجدها إياسو ما زالت تلتزم الجدية فى حديثها فقال :

ـ « إن سعادتى بك فوق التصور . . أنت بنت الأحداث العاصفة ، والإيمان الذى لا يتزعزع . . إلىّ أيتها الحبيبة . . لكَم أتمنى أن أضمك إلى صدرى . . إن شعوراً فياضاً هادراً يسرى فى كيانى كله . . هذا يوم المنى . . »

أدارت وجهها فى حياء ، وتوردت وجنتاها خجلاً . . وابتسمت . .



إياسو لا ينكر أن الحرب ضد تركيا والشرق حرب اقتصادية تؤججها المطامع الاستعمارية ، لكنها فى الوقت نفسه تخفى وراءها أهدافاً صليبية ماكرة ، تبغى الكيد للأمم الإسلامية ، وتحطيم وحدتها ، والقضاء على قوتها المتوثبة على حقب التاريخ ، وإياسو يرى أن مساعدته للإنجليز والفرنسيين تحمل فى طياتها ـ من الوجهة السياسية ـ أخطاراً مؤكدة . فإذا ما تعاون معهم فلسوف يزداد سلطانهم ونفوذهم فى الحبشة ، وسيرتبطون بعجلتها إلى الأبد ، وفى ذلك ما فيه من ضياع حرية البلاد ، وتهديد مصيرها ، والمساس بقضية العقيدة فيها .

إن القضاء على الخلافة الإسلامية فى نظره برغم الانحراف الذى دبَّ فى أوصالها ، والطغيان الذى مارسه بعض سلاطينها، سوف يدمر حاجزاً ضخماً يقف حائلاً أمام الأهداف الصليبية والاستعمارية فى العالم ، وسينهار الرمز الذى تحتشد وراءه العواطف الإسلامية على الرغم من حركات التمرد القومية ضد عسف تركيا . . . وهكذا تبلورت الفكرة فى رأس إياسو . . أن يحمى بلاده من التدخل الأجنبى بعدم التعاون مع

الحلفاء ، وأن يحمى العقيدة التى يؤمن بها بالوقوف فى وجه التخطيط الصليبى ، والأهداف الاستعمارية . . ولو كان إياسو يبغى مجداً شخصياً رخيصاً ، وتثبيتاً مستعاراً لدعائم عرشه ، لبقى مسيحياً فى الظاهر ، ولنافق الكنيسة ، ولاستجلب رضا الحلفاء . . لكنه لم يكن كذلك ، لن يفعل سوى ما يؤمن به ، ولن يستجيب إلا لمنطق العقيدة ، ورغبات الشعب . . . أجل رغبات الشعب . . فقد انهالت عليه المكاتبات من المسلمين وعلمائهم وذوى الرأى فيهم فى شتى أنحاء الحبشة ، وهم يشكلون أغلبية تبلغ خمسة وسبعين فى المائة ، كانت هذه المكاتبات تطالب بالتعاون مع تركيا دولة الخلافة الإسلامية ، والتى تتعرض للانتقام الاستعمارى والصليبى ، إنهم يرون بأعينهم كيف ابتلع الإنجليز مصر ، وكيف استولت فرنسا على المغرب العربى ، وكيف يتوثب الإنجليز والفرنسيون لابتلاع الشام وغيرها ، ومن ثَمّ طالبوا بعدم التحالف مع الحلفاء وبمؤازرة تركيا بكل قوة . وفعلاً عزم إياسو على الذهاب نحو الجنوب لتجميع جيش كبير يرسل به لمؤازرة تركيا ، وبينما هو يُعد العدة لذلك قدم أبوه . . .

قال ميكائيل :

ـ « أى ولدى . . إن اتجاهك شريف لا شك فيه ، لكننى أخاف الغدر »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ« إن انهماكك فى الاستعداد الحربى ، قد يعطى فرصة للطامعين . . إن رؤوس بعض المقاطعات لا يكنُّون لك إلا كل عداء ، والكنيسة سوف تفقد صوابها ، ولهذا كنت أفضل الحياد وعدم الاشتراك الفعلى فى الحرب . . »

قال إياسو :

ـ « كيف يمكن أن أقف محايداً بين حق وباطل يتصارعان بالسيوف ، ويراق بينهما الدم ؟؟ »

ـ « يبدو لى يا إياسو أن آمالك أكبر من قدراتك . . »

ـ « إن شعبنا يستطيع أن يصنع المستحيل ، أو يحقق الكثير على أسوأ تقدير . . إننى حينما أحارب إلى جوار تركيا ، إنما أدافع بذلك عن الحبشة . . »

ـ « هذا تصور طيب ، لكنك إذا ما هُزمت تركيا ، وهو الأرجح فقد فقدت الحبشة ، قد يأتى إليك الضرر من حيث تتوقع أن تأتى الفائدة . . »

وظل إياسو يفكر فيما قاله أبوه لبضع ليال ، يفكر فى

احتمال هزيمة تركيا ، وما قد يجره عليه من مشاكل سياسية واجتماعية وعنصرية ، ويفكر فيما يصر عليه ذوو الرأى من أمته، وما تعتنقه الكنيسة من ضرورة مناصرة الحلفاء ، ويفكر فى المحادثات التى كانت تجرى بينه وبين قنصل تركيا ، وقناصل فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . إن بعد النظر السياسى يكاد يوقفه عن التحرك لمساعدة تركيا ، وحرصه على عدم التفريط فى ثروة وطنه ، وأفراد شعبه ، وأحقاد الكنيسة ، كل ذلك يجعله يفكر ألف مـرة قـبل أن يُقـدم على هذه الخطوة الحـاسـمـة ، لكنه تسـاءل : هل كل أمـور الدنيـا والدين ينظر إليـهـا بعين الكسب والخسارة ، والشر الذى قد يقع ، أو الخير الذى قد يأتى ؟؟

إنه ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى . . إنه يرى معركة بين الحق والباطل ، بين الصليبية المتخفية ، والإسلام المفترى عليه، ولا ينفى هذا التصور وقوف ألمانيا إلى جانب تركيا ، فألمانيا لا تختلف مطامعها عن مطامع إنجلترا ، لكنه عند النصر فستكون تركيا منتصرة وألمانيا منتصرة . ومن ثم فستكون الفدية متوفرة ، ولن تخسر تركيا المسلمة المنتصرة ، مثلما تخسر تركيا المسلمة المنهزمة . لشد ما يكره إياسو الحياد فى مثل هذه الأمور ، إن عليـه أن يخـتـار بين الحق والبـاطل : بين منطق الكسب والخسارة، ومنطق المثل العليا . . لهذا قرر « إياسو» أن يمضى

في الطريق دون أن يتراجع . . لسوف يذهب إلى الجنوب ليعد العدة لمساعدة تركيا ، ولسوف يحسم الأمور كما يحلو له دائما، بطريقة واضحة لا غموض فيها ، فغالبية الشعب تؤيده ، وعاطفته الدينية تدفعه إلى ذلك ، وخوفه من الحلفاء إذا ما انتصروا يحرضه على الوقوف ضدهم . . »

قال إياسو لزوجته :

ـ « إنها حرب مصيرية يا عزيزتي . . »

ـ « أعرف ذلك . . »

ـ « وأبوك في هرر يرى فيها تجربة طيعة لتدريب المسلمين واستثارة حميتهم من جديد ، حتى يمكنهم الحفاظ على عقيدتهم ضد أي غدر مجهول . . »

ـ « إنه يؤمن بذلك تماماً . . »

ـ « وأنت ؟ أليس لك رأي خاص في هذه المشكلة . . »

ـ « أنا لا أعرف كثيراً عن هذه الأمور ، ولكني أؤمن أن الحرب فريضة في حالة الدفاع عن النفس والشرف والعقيدة . . »

قال إياسو في فرح :

ـ « إذن لمَ التواضع ؟ أنت تعرفين خير ما يجب أن يُعرف »

ـ « أتحارب إذن دفاعاً عن ذلك كله . . ؟ »

ـ « أجل ياعزيزتى . . »

ـ « فأنت على صواب . . »

قال إياسو شارداً :

ـ « لكن ذلك سيكلفنا الكثير من التضحيات ، وسيجلب علينا مزيداً من الأخطار . . »

ـ « لتزن الأمور بدقة . . »

ـ « إننى أزن الأمور بميزان قد لا يُعجب البعض . . »

ثم صمت برهة ، وعاد يقول :

ـ « إن أغلب حكام المقاطعات قد أيدونى فى مناصرة تركيا . . »

قالت زوجته :

ـ « وزوج مالفن ؟؟ »

ـ « تفرى ؟ »

ـ « أجل . . إنه حصيف ، ورأيه له وزنه . . »

ـ « الغريب فى الأمر أنه يشتعل حماساً لرأيى ، لقد أبدى استعداده لإرسال بعض المتطوعين المسلمين فى مقاطعته . . أحياناً يبدو « تفرى » واقعياً مغرقاً فى الواقعية . . لقد قال أنه قد تردد فى مثل هذا الأمر نظراً لما علمه من تضايق قناصل الحلفاء فى الحبشة ، لكنه أكد لى أن رغبة غالبية الشعب فوق كل اعتبار ، لقد قابل تفرى الأمر بهدوء ، وكذلك فعل غيره من حكام بعض المقاطعات المسيحيين ، وأما البعض فقد اعترض صراحة على التعاون مع تركيا ، زاعماً أن بعض الدول الإسلامية والعربية التى تحكمها تركيا قد انحازت للحلفاء . . والكنيسة تبدو وكأنها على الحياد ، لكنى على يقين أنها قد غضبت غضباً شديداً من جراء اتجاهى الجديد ، ومن ثم فقد رضخت للأمر ، وميتاوس أخبرنى أنه ملزم بالانصياع لرأى الأمة ، وإرادة الإمبراطور المحبوب . . »

وسادت فترة صمت قال إياسو بعدها :

ـ « وأنت ألن تأتى معى إلى الجنوب !؟ »

قالت زوجته فى دهشة :

ـ « أتمزح يا إياسو ؟؟ »

ـ « لا يا عزيزتى . . »

قالت وهى تهم بالانصراف :

ـ «هل سيأخذ الضباط والجنود والقواد زوجاتهم معهم ؟؟»

ـ « لا . . »

ـ « فلماذا إذن تتصرف على خلافهم ؟؟ »

قال باسمًا :

« لأنى الامبراطور »

وأخذ جسده يهتز مع ضحكاته . ثم عاد يقول :

ـ « إن الفرق كبير . . كبير جداً . . »

ـ « ماذا تعنى ؟؟ »

ـ « لقد طرحت السؤال نفسه على زوجتى السابقة ، لا . . لم أطرحه ، بل هى التى اقترحت وأصرت على أن ترافقنى أينما ذهبت ، لم تكن تفكر فى شيء سوى تلازمنا معاً ، كان حباً غبياً أنانياً . . »

ساد وجهها شحوب ظاهر ، وسحبت يدها من يده ، وقالت :

ـ « لسوف أخرج الآن . . »

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « سأعود عندما تنتهى من التفكير فيها »

ـ « أتغارين ؟؟ »

ـ « إننى أيها الحبيب إياسو أبغض مثل هذه المقارنات حتى ولو كانت فى صفى . . إننى أرفضها بكل شدة ، إن ما يؤلم المرأة أحياناً أن يكون لزوجها تجارب ، وأن يعقد المقارنات . . »

قال إياسو وقد شدَّه حديثها :

ـ « لقد كانت زوجتى »

ـ « ليكن . . »

ـ « هل تضايقت ياحبيبتى ؟؟ »

ـ « بماذا تريدنى أن أجيب ؟ »

ـ « بصفح جميل منك . . لن أعقد المقارنات مرة أخرى . . أعدك بذلك . . »

قالت وقد دمعت عيناها :

ـ « إنها تتغنى بقصائد الغزل فيك أينما ذهبت ، وتملأ الردهات والقصور بحبها لك . . ترى ماذا كان بينكما ، إنه شيئ لا يطاق . . »

قال إياسو :

ـ « لم أتصور أن تفعلى ذلك . . إن عقلك وتفكيرك السليم يجعلنى أظنك فوق الغيرة والغضب . . »

قالت وهى تبكى :

ـ « إننى امرأة يا إياسو . . لا تنسَ ذلك . . إن شبحها الآن يقف فى مواجهتى متحدياً ساخراً . . إنه يبدو وكأنه يقول لى أشياء كثيرة تملأ قلبى بالحزن . . »

قال إياسو وقد اقترب منها وأمسك بكفيها :

ـ « لسوف أقترب منك أكثر ، حتى لا يكون بيننا مكان لشبح دخيل ، إن اتحادنا معاً سوف يعتصر كل أذى ، ويتركه بلا حياة . أى حبيبتى إننى أعيش معك أحلى أيامى . وأجمل أمنياتى . . إن هناك معالم بارزة فى حياتى لا تنسى . . اختيارى امبراطور . . واعتناقى الإسلام ، وزواجى منك . . »

وابتسمت فى سعادة برغم القطرات الصغيرة المتعلقة بأهدابها . وتمتمت فى شبه غيبوبة :

ـ « إياسو . . أيها الحبيب الغالى . . »

يا له من رجل !!!

إنها لتحب فيه تمرده وقلقه وعاطفته الجياشة وتحب فيه ثورته وهدوءه ، ورضاه وسخطه ، ومزاحه وجده ، إنه طاقة لا نهاية

لها من الانفعال والحركة ، إنه وجود قائم بذاته يضج بالحياة ، ويترنم بالشعر ، ويعبر بالفلسفة ، ويستسلم ويتمرد ، ويعلن حبه إذا أحب ، ويبدى كراهيته إن كره . . إنه أنموذج فريد غريب . . ليس مثل كل الناس . .

ـ « إياسو . . أيها الحبيب الغالى . . لست أدرى كيف أعيش بدونك إذا ما رحلت إلى الجنوب، وخضت غمار الحرب . . »

قال معاتباً :

ـ « أنت التى ترفضين مرافقتى . . »

ـ « أنت تعلم السبب ؟؟ »

ـ « ففيم العتاب إذن ؟؟ وماذا أفعل ؟؟ »

ـ« إننى أتكلم . . أعبر عن أشياء كثيرة تعتمل فى قلبى . لا يمكننى التعبير عنها كلما أشتهى . . إننى أريد أن أبقى وأن آتى معك . . إننى . . ماذا أقول ؟؟ لا أدرى . . إياسو . . إن وجودى معك هو الوجود . . إننى معك يمتلئ قلبى باليقين والإيمان والحب . . إن قلبك الكبير ، وإنسانيتك العالية . . آية من آيات الله . . »

وعاوده الشرود من جديد . فتدليت يداه إلى جواره وقال :

ـ « كان يرعى الأغنام ، ويلبس جلباباً رخيصاً ، ويأكل

أبسط الطعام ، ويشرب من ثدى النعاج . . ويمضى دون حراس أو حجَّاب . . وليس له قصر منيف . . لكنه كان أعظم من مشى على الأرض ، وخير من تلقَّى كلمات الله . . هذا هو المثل الأعلى يا حبيبتى . . محرر العبيد . . ورسول السلام والحب والحرية . . والأخ الحنون لملايين البشر فى كل مكان وزمان . . محمد »

تمتمت فى خشوع :

ـ « صلى الله عليه وسلم . . »

ـ « إننى أسمع المؤذن يدعو لصلاة الفجر . . فليبق هذا الصوت بأمر الله مجلجلاً فى الآفاق أبد الآبدين . . هيا إلى الماء كى نستعد للصلاة . . ففى رحاب الله يا حبيبتى تسكن روحى ، وينزوى قلقى ، وتبدو الدنيا أمامى وكأنها شيء بسيط للغاية . . وتبدو قوى العالم المادية وكأنها هنا . . هيا يا حبيبتى لنرطب القلوب بذكر الله . . . »



على الرغم من التكتم الشديد الذى يحيط « تفرى » نفسه به فإن الظواهر المختلفة تدل على أن شيئا ما سيحدث . غياب تفرى لفترات طويلة فى الخارج ، زيارته لأماكن عديدة فى المقاطعة وغير المقاطعة ، المقابلات السرية التى تتم فى قصره أحياناً وفى الأبرشية أحياناً أخرى ، السهر لساعات متأخرة من الليل ، تدفق العتاد والأسلحة ، وتدريبات الجنود المتصلة . . . ، لا يمكن أن تمر هذه الأمور دون أن تبعث فى النفس شيئاً من التساؤل والشك .

قال قائل : لأى هدف هذه الإعدادات الهائلة ؟ فكان الجواب ، إن امبراطورنا سوف يساند تركيا ، وكانت هذه الإجابة مضحكة ، إذ كيف يُقدِّم الإنجليز أو الفرنسيون سلاحاً للحبشة التى ستساعد تركيا ؟ إن معنى ذلك أن يرتد سلاح الحلفاء إلى صدورهم ، والأدعى إلى السخرية أن يقال إن تفرى يخدع الحلفاء ، ويمنيهم بالعون فى الوقت الذى يعتنق فيه رأى الامبراطور إياسو وتوجيهاته ، ولقد بلغ الاستعداد والنشاط ذروته فى الفترة التى ذهب فيها إياسو للجنوب ، وذهب أبوه

إلى مقاطعة « وللو» وكانت « مالفن » زوجة تفرى وشقيقة إياسو برغم ما تعانيه من نكد وهم وكربات تشك فى نوايا تفرى وتصرفاته ، إن قلبها يحدثها بأن شيئاً خطيراً على وشك أن يحدث، وانتهزت فرصة وجود تفرى ذات مرة وقالت له :

ـ « ماذا يدور هنا ؟؟ »

ـ « عن أى شيء تتساءلين ؟ »

ـ « الاستعداد للحرب . . »

توترت أعصابه ، وارتجفت لحيته وقال :

ـ « هذا أمر يخصنى وحدى ، إننى أنا الذى أحكم ، وأنت يجب ألا تفكرى إلا فى أمور القصر ، أنت زوجة . . هذا ما يجب أن تفكرى فيه »

قالت مالفن فى ضيق :

ـ « إن الحرب لا تخصك وحدك يا تفرى . إنها مشكلة تهم الجميع ، وتتعلق بمصيرنا كلنا . »

قال فى ضيق مصطنع :

ـ « إن أخاك هو الذى يجر علينا هذه المتاعب ، إنه يزعم أنه داعية سلام فى الوقت الذى يحاول فيه أن يشترك فى حرب

عنيفة فى صف تركيا ، البلد الذى يبعد عنا آلاف الأميال ، ونحن إزاء ذلك مضطرون للاستعداد مخافة أن يدهم البلاد عدو غادر ، إن هذا الجيش الذى أعده هو لحماية عرش أخيك ، والذود عن حرمات البلاد . . »

ـ « لكنك يا تفرى أيدت وجهة نظر إياسو »

ـ « كنت مضطراً لذلك حتى لا يحدث ارتباك فى سياستنا الدولية ، ولكيلا يحدث شقاق بين صفوف الأمة . . »

وصمت برهة ، ثم قال :

« إن مايجرى هنا يعرفه أخوك ، إننا نؤدى المهمة نفسها التى يقوم بها فى الجنوب ، لكى نشترك فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، إن إياسو متعصب للترك أشد التعصب ، مع أنه يزعم أنه حياد وتسامح وإخاء . . »

ورأى تفرى الشك فى عينى « مالفن » ، وهو يعلم أنها لا تحبه ، بل تحتقره ، ويعلم أنها لاتصدقه ، فهو يعبر فى أغلب الأحيان تعبيراً عكسياً عما يعتمل فى ذهنه وقلبه ، إن أعماقه تبدو كعالم أسود غامض ، لا تتضح فيه نوايا ، ولا يبين فيه بصيص ضوء ، ونظرت هى الأخرى إلى وجهه فلم تستطع أن تقرأ سطراً واحداً من تعبيراته . . لكن الشك يؤرقها . فهى تثق

فى ظنها ثقة تبلغ حد اليقين . . ، إن تفرى سوف يُقْدِم على خيانة خسيسة . .

إنه حليف وفىّ للشيطان ، يبيع أغلى القيم ليحقق أهدافه الدنيئة ، ويدوس كل المقدسات فى سبيل الوصول لمكانته ، لكنى أبحث عن دليل . .

ولم يغب عن فطنة « تفرى » أن بذور الشك قد نبتت فى قلب « مالفن » إنه يعرفها جيداً ، ويعرف أنها سوف تتحرى الحقائق ، وتبذل أقصى ما تستطيع لكى تعرف الحقيقة ، إنها دائماً تبحث عن إدانة جديدة لانحرافه وحقده وتآمره ، ومن ثم فكر فى أن يضربها فى الصميم . .

عند تناول وجبة الإفطار فى الصباح التالى ، تذوق تفرى شرائح اللحم المشوى ، وبان الكدر على وجهه ، وتمتم فى حقد ظاهر :

ـ« هذا الطباخ الملعون يحرص دائماً على إغاظتى فيزيد كمية الملح فى الطعام ، ولا ينضج الطعام كما يجب . إلىّ به حالاً . . »

هرول الخدم ، وأحضروا الطبَّاخ الذى كان يجرى ويلهث وينكفىء ، ثم ينهض ليتعثر من جديد ، وواجهه تفرى بنظرات قاتلة حادة ، وصاح غاضباً :

ـ« أيها الأحمق ، لقد سامحتك عشرات المرات . . »

ـ« مولاى . . »

ـ« إخرس . . . هاتوا الكرباج »

وانهال تفرى على وجهه وجسده ضرباً مبرحاً ، والمسكين يئن ويصرخ ويتوسل ، ويقبل الأرض ، ويمرغ وجهه الدامى الذى شوهه السوط ، دون جدوى ، وما أن شعر تفرى بالإرهاق ، حتى أقبلت « مالفن» وأمسكت بيده وهى تقول فى ضراعة :

ـ« قلت لك إرحمه يا تفرى . . إنه مسكين . . ألا تسمعنى؟؟ »

ـ« هذه هى الطريقة التى ترغمهم على الإخلاص والتروى فى أعمالهم ، إننى أعرف أن السوط وحده هو الذى يصلح أحوالهم . . ومع ذلك فقد قررت قراراً لا رجعة فيه . . يجب أن يرحل هذا الأحمق عن قصرى منذ الغد . . ولسوف أسافر اليوم . وأعود بعد ثلاثة أيام . فإذا حضرت من سفرى ورأيته هنا ، فلن يكون له عقوبة سوى القتل . . مفهوم ؟ »

هتفت مالفن :

ـ« تفرى . . »

ـ « انتهى الأمر ، لقد اتخذت قرارى ، ولن أتراجع ، إن تفرى لا يعرف التراجع . أغرب عن وجهى أيها النجس . . »

وساد السكون بعد أن خرج الطباخ المسكين وهو يئن ويتوجع ، وتبللت أهداب « مالفن» بالدموع ، وشعرت بحزن عميق أفقدها الرغبة فى مواصلة تناول الطعام ، وقالت بنبرات حزينة :

ـ « لقد خدمك فترة طويلة ، وكنت تحبه وتعطف عليه ، ولم يقصر فى حقنا ، وله زوجة وأطفال عديدون ، ألا تغتفر له هذا الخطأ يا تفرى للمرة الأخيرة ؟؟ »

ـ « مستحيل . . »

ـ « إننى أرجوك . . »

قال ساخراً :

ـ « لمَ هذا العطف الظاهر ؟؟ ألمجرد إخلاصه ومهارته وفقره ؟؟ ليس لى دخل بكل هذه الأمور ، إننى أنظر لهؤلاء الناس من وجهة نظر واحدة لا تتغير ، هل يصلحون للعمل أم لا ؟؟ وفى رأيى أن هذا الطباخ لا كفاءة له ، ومن ثم فلن تستطيع قوة فى الوجود أن تجعلنى أتخلى عن قرارى . . ولسوف أحضر لك من هو أكفأ وأخلص منه . . والآن دعى

هذا الأمر يا « مالفن » ، لا يصح أن يشغل من وقتنا وتفكيرنا أكثر من ذلك . . »

وغادر تفرى القصر بعد فترة ، ولم تستطع « مالفن » أن تنسى ما حاق بذلك الطباخ المسكين المدعو « يوحانس » فاستدعته على عجل ، فقدم ممزق الوجه ، دامع العينين ، مذعور النظرات ، وهمست :

ـ « اجلس يا « يوحانس ».

ـ « عفواً مولاتى . . لقد أخطأت خطأ جسيماً . إننى أستحق كل ما حدث . . »

ـ « أنت تبالغ أيها المسكين . . إن ما حدث ليس خطأ بالغاً كما تتصور ، ثم إن كمية الملح ليست بالدرجة التى تصورها تفرى ، إن تفرى ثائر الأعصاب ، لم ينم الليلة كما يجب . . »

ـ « إننى أعرف مولاى جيداً . . إنه لن يتراجع عن قراره »

ـ «وهذا ما يؤرقنى ويتعسنى أيها المسكين « يوحانس . . »

ـ « لسوف أرحل غداً إلى أديس أبابا . . لم يعد لى عيش هنا . . . إن الله لن ينسى أحداً . . »

قالت وقلبها يتمزق من الأسى :

ـ« ولمَ لا تبق فى هذه المدينة ، فقد أستطيع إقناعه بعد سفره! . . »

ـ « إننى أعمل معه منذ مدة طويلة . . إنه لن يغفر . . »

طأطأت رأسها مكتئبة وقالت :

ـ « أعتقد أنه ليس لديك ما يكفيك من المال . . »

وصمت الطباخ بينما هرولت « مالفن » إلى الداخل ، ثم عادت بعد قليل وفى يدها مبلغ من المال يكفيه وزيادة ، ثم قالت :

ـ« خذ هذه النقود ، ولسوف أعطيك مكتوباً لكبير الخدم فى قصر الامبراطور كى يجد لك عملاً هناك . . ألا تحب أن تعمل لدى أخى إياسو . . »

ـ « مولاتى ، إن امبراطورنا العظيم إياسو هو هدية السماء إلينا . إننا نحبه لدرجة العبادة . . »

ثم انحنى وخطف يدها وقبَّلها . .

وانحنى مزمعاً الخروج ، لكنه توقف لدى الباب ثم عاد :

ـ« مولاتى . . »

ـ « ماذا تريد يا يوحانس المسكين ؟؟ »

طأطأ رأسه ، وقال وهو ينتفض من الاضطراب .

ـ« أعرف أن تفرى زوجك . . وإياسو أخوك . . وأنك سوف تعانين العذاب بين الوفاء لزوجك ، والتضحية بنفسك ، والمحافظة على أخيك امبراطور البلاد . . . »

ـ « ماذا تريد أن تقول ؟ . . »

ـ « إن عطفك البالغ ، قد جعلنى مديناً لك بحياتى ومستقبلى . . »

ـ « تكلم يا يوحانس . . . »

فشرد الطباخ لبضع لحظات ، ثم قال :

ـ«كان ذلك فى الأسبوع الماضى ، وقبيل منتصف الليل طلب مولاى الأمير تفرى أكلة خفيفة له ولبعض الرسميين المجتمعين معه من رجال الدولة . . لم ينتبهوا لوجودى ، كانوا منهمكين فى التفكير والتخطيط . . لقد تأكد لى أنه خطير . . »

ـ « ماذا ؟؟ تكلم . . »

ـ « إنه الغدر يا مولاتى . . »

ـ« الغدر ؟؟ »

ـ « أجل . . لم أكن أتصور أن « تفرى» يخطط لحرب

خاطفة يحتل بها « أديس أبابا » ويقضى على إياسو الطيب ، ويقيم من نفسه امبراطوراً مكانه . »

هبت مالفن واقفة ، وقدمت نحو الطباخ ، وأمسكت بكتفه ، وهزته فى انفعال وتوتر ، وقالت :

ـ « إن ما تقوله يحمل معنى خطيراً . . خطيراً للغاية . . أواثق أنت مما تقول ؟ »

ـ « كل الثقة يا مولاتى . . لم أقل ما قلت إلا لأرد لك بعض الجميل ، ولأحمى البلاد من فتنة دموية ، قد يراق فيها دماء عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ، إن امبراطورنا العظيم إياسو . . جدير بكل تضحية . . وأنا على استعداد لأن أضحى من أجله بحياتى . . »

دارت الأرض بالأميرة « مالفن » فألقت بنفسها على الكرسى محطمة الروح ، خائرة القوى ، هذه ليست حياة ، إنها غابة للذئاب طافحة بالغدر والخديعة والكذب والأنانية . . هذا الخائن المأفون ، يرقد إلى جوارى ، ويأخذنى بين ذراعيه القذرتين ، ويهمس فى أذنى بعبارات الغزل الرقيقة ، فى الوقت الذى يدبر المكائد فيه لأخى ، ويعد له خنجراً مسموماً كى يطعنه من الخلف ، ما هـذا الذى يجرى ؟؟ مسكين إياسو الطيب . إن قلبك يمتلئ بالحب والرحمة والولاء لبنى

البشر ، إن تفرى وأمثاله لا يستحقون سوى الحبال التى يجب أن تلتف حول أعناقهم لتزهق أرواحهم . هذه الأفواه القذرة لا يصح أن تسمع لكلمة واحدة من ترهاتها يا إياسو ، وهذه الأيدى الملوثة بالعار والخديعة ما كان لك أن تصافحها يا إياسو ، وهذه العقول المنتنة ما كان لك أن تستعين بها أو تحكِّمها فى رقاب العباد المساكين . .

يا إياسو ، لقد حذرتك يا إياسو ذات مرة ، وطلبت منك أن تفرق بينى وبين هذا الشيطان . . لكنك أبيت يا إياسو . . إن سيوف الغدر تتوثب لتنقض عليك ، وتدمر ملكك ، وتنتزع منك حقك الشرعى ، وتقضى على أحلامك فى العدل والحرية والمساواة والحب . . أنت تزرع الورود الزكية فى أحواض الجيف والمستنقعات الآسنة يا إياسو . . لقد كان عليك أن تنظف أرض الحبشة من الشوك والكذب والنوايا الخبيثة قبل أن تعلن مبادئك السمحة . . أيها المسكين ليتنى أطير إليك الآن ، لأضع بين يديك الصورة السوداء لمجتمع الذئاب البشرية التى تتلوث أياديهم بالدم والخيانة . .

وجاءها صوت الطباخ يوحانس :

ـ « الوداع يا مولاتى . . »

ـ« يوحانس . . انتظر . . هل أستطيع أن أحملك رسالة ؟ »

ـ « قلت لمولاتى إننى على استعداد لأن أضحى بحياتى . . »

وهرولت إلى الداخل ، وتناولت ورقاً وقلماً ، وأخذت تدبج رسالتها على عجل ، وتشرح فيها الخطر المحدق بالامبراطور وبالوحدة الوطنية ، والمؤامرة التى يدبرها تفرى ورجال الكنيسة ، وبعد أن خرجت ناولته الرسالة قائلة :

ـ « يجب أن تحافظ على هذه الرسالة يا يوحانس كما تحافظ على حياتك . .

حذار أن تقع فى يد أحد وإلا ضعنا ، وضاع كل شيء . . »

ـ « مولاتى . . لقد تطوعت بكل شيء . . السياط لم تزل تلهب جسدى ، والحقد الأسود يأكل قلبى لم يكن تفرى طول حياته مسيحياً طيباً بل كان يتصرف كوثنى عربيد لا يؤمن بإنسانية إنسان . . »

ـ « ولكن كيف أعرف أن الرسالة وصلت القصر الامبراطورى . . »

ـ « سأعود لك بالرد . . »

ـ « أتعنى ما تقول يا يوحانس ؟ . . »

ـ « لسوف آتى خفية . . وأتسلل فى الوقت المناسب . . لقد نذرت نفسى للحفاظ على العرش والأمة . . وليحفظنا الله . . . »

قرأ تفرى الرسالة وقلبه ينتفض من الغيظ ، ووجهه ينبئ بكدر شديد ، وظل يقرأها لمدة طويلة ، على الرغم من قصرها وإيجازها ، كانت تكشف عن رأى زوجته فيه ، وتعليقاتها على المؤامرة المتوقعة ، وخوفها على مستقبل أخيها وعرشه ، ثم هدأت أعصابه ، وزايله انفعاله ، وقال :

ـ « رائع يا يوحانس . . لقد نجحت خطتنا تماماً . . كنت أدخرك لمثل هذه المهام الخاصة الخطيرة . . مهام المستقبل والمصير . . لقد كان الأنبا ميتاوس على حق حينما أكد لى أنه يمكننى الاعتماد عليك فى أدق الظروف وأحرجها . . إنك مسيحى حق، تعرف واجبك نحو الكنيسة والوطن ، وتدرك الخطر الأكبر الذى تجتازه بلادنا . . والآن يجب أن تختفى تماماً عن الأنظار يا يوحانس . . لا يصح أن يراك أحد من حاشية قصرى أو الخدم ، وإلا فسد كل تخطيط لنا . . إن كل معارفك يجب ألا يروك . . لسوف تذهب إلى أحد الأديرة خارج المدينة كى تختفى فيها لمدة عشرة أيام ، ثم تظهر ومعك الرد على رسالتها . . الرد الذى سوف أكتبه بيدى ، محاولاً جهدى ألا تشك مالفن فى صحته . . وبهذا يرتاح بالها ، ويتأكد لها أنها قد كشفت النقاب عن المؤامرة الخطيرة ، وأن أخاها لن يفاجأ بضربتنا ومن ثم يستطيع أن يفسد تدبيرنا ، ويقبض على نواصينا

ويسوقنا إلى ساحة الإعدام . . كنت أعرف أنها تكرهنى . . كانت حياتى معها ، وحياتها معى سلسلة متصلة من الأكاذيب والمراوغة والتظاهر ، لقد تزوجتها بدافع سياسى بحت . . إننى أحتقر أفكارها وأفكار أخيها إياسو . . إنها ليست لى ولست لها . . ومن ثم فإن نهايتها ستكون تعسة أيها القس المخلص « يوحانس» . . لسوف تكون مكافأتك كبيرة . . ستكون ضابطاً كبيراً فى الحرس الامبراطورى . . لقد أثبت نجاحك فى عشرات المهمات التى كلفتك بها ، والتى كلفك بها رجال الكنيسة من قبل . . إنك شخصية فذة نادرة . . هذا ما أردده عنك دائماً . . ومعذرة إن كانت سياطى قد آلمتك . . لقد خُيل إلىّ لحظتها أننى لا أضربك . . بل أضرب إياسو الملعون . . هذا الأبله الذى لا يفارق شبحه خيالى . . لقد آلمتك أيها الطباخ المسكين . . لكن كان لا بد من ذلك حتى نلعب دورنا فى مهارة ، فتنجح المسرحية ، وتؤثر فى الجماهير . . أليس كذلك ؟؟ »

هز الطباخ يوحانس رأسه باسماً وقال :

ـ « تحت أمرك يا مولاى الامبراطورى ! ! »

ـ « لم أصبح امبراطوراً بعد ، بدليل أنك لم تزل طباخاً حتى الآن ، لا تتعجل الأمور يا يوحانس . . إننى لم أزل « الرأس

تفرى » حاكم إحدى المقاطعات لا غير . . »

انحنى الطباخ ، وتراجع إلى الخلف ، وتمتم :

« إلى اللقاء أيها الرأس المفكر تفرى . . الى اللقاء . . »

***

حينما تلقَّت « مالفن » الرد على رسالتها ذات مساء ، كادت تُجن من الفرح ، لقد تناست مركزها ، واختطفت يد « يوحانس » وقبلتها قائلة :

ـ « إننى أقبِّل اليد الطاهرة التى أنقذت مستقبل الحبشة ونجَّت الحبيب إياسو ، لقد استطعت أيها الرجل الطيب أن تسدد طعنة نجلاء إلى قلب الخيانة والخسة والنذالة . . »

قال يوحانس :

ـ« إننى أؤدى واجبى يامولاتى ، وما كان يصح أن تقبلى يد عبدك المطيع . . ولسوف أذهب إلى القصر الامبراطورى فى أديس أبابا ، فإذا أتيت يامولاتى إلى هناك فى زيارة فلتذكرى عبدك المطيع يوحانس . . لن تتعبى فى البحث عنه . . فسيكون هناك فى زاوية من زوايا القصر فى المطبخ . . »

صافحته فى ود وهمست :

ـ « لشد ما يؤلمنى فراقك أيها العزيز . »

ـ « إلى لقاء قريب يا مولاتى . . . »

ـ « إلى اللقاء يا يوحانس . . تمهل . . وانظر إلى الطريق جيداً . . فإن حياتك ثمينة ، ويجب أن تحافظ عليها ، وعندما تنتهى الأزمة فلسوف ترى من إياسو أسخى مكافأة حلمت بها طول حياتك . . »

قال الطباخ :

ـ « لقد أديت واجبى ، وأرضيت ضميرى ، وهذا فى نظرى أعظم مكافأة . . »

وتوارى عند الظلام الذى يحيط بالقصر ، وغاص فى المجهول ، وأخذت « مالفن » تحدق خلفه وهو يبتعد ، وقلبها يدق فى فرح مختلط بالحزن الشفاف ، لشد ما أثر فيها إخلاص ذلك الرجل المسيحى الطيب .

وعادت « مالفن » إلى سريرها هادئة البال ، وسرعان ما راحت فى سبات عميق ، ملئ بالأحلام المبتهجة ، والأمانى الحلوة . .

لم تكن تعلم أن هناك رصاصة انطلقت فى الظلام ، فأصابت من الطباخ « يوحانس» مقتلاً . . . وسقط يسبح فى

بركة من الدماء . . قال الرأس تفرى لنفسه وقد بلغه النبأ المؤسف ! !

« كان من الضرورى أن أقتله ، لقد كشفت له النقاب عن بعض الأمور العائلية الحساسة ، كانت معه ورقة يستطيع أن يلعب بها فى أى وقت ، إن العلاقة الغريبة بينى وبين زوجتى مالفن يجب أن تظل طى الكتمان بالرغم مما يشوبها . . ، ثم إن يوحانس رجل خطر . . ويبدو أنه جاسوس للكنيسة علىّ . . لا شك أنه كفاءة ممتازة ، لكنه ماكر ماهر قد يستغل ذكاءه ضدى فى أية لحظة ، إنى أشعر بالرعب كلما تصورت أن هذا الرجل الخطر يعيش فى قصرى ، ويقدِّم لى الطعام كل يوم . . أريد أعوانى أن يكونو على جانب متواضع أو متوسط من الذكاء ، أما أولئك الذين يتميزون بذكاء حاد فإنى أكرههم ، بل أخافهم . . رحمك الله يا يوحانس المسكين . . »

***

وفغرت مالفن فاهها دهشة فى الصباح عندما علمت نبأ مصرع « يوحانس » المسكين . . لم يستطع ذهنها أن يتصور كيف ولماذا حدثت الجريمة ، فقالت فى حــزن وحيــرة وتوجــس : « فليرحمك الله يا يوحانس المسكين . . »



كانت الخطة الجهنمية التى وضعها الفرنسيون والإنجليز مع تفرى ورجال الكنيسة خطة محكمة ، فعندما تحركت قوات تفرى جنوب« أديس أبابا» أشيع أن هذه القوات تزحف لتلحق بجيش الامبراطور إياسو لمؤازرة تركيا ، واتخذت طرقاً ملتوية ، وانحرفت إلى بعض الطرق الجانبية بغية التضليل والإيهام ، مع أن هذا المسلك قد أرهق قوات تفرى بعض الشيئ ، وأضاع عليها عدة أيام ، وانقضت الحملة الكبيرة وعلى رأسها تفرى على العاصمة فى منتصف ليلة حالكة السواد ، وسرعان ما انتشر الغازون فى كل مكان ، واحتلوا الأماكن الاستراتيجية الحساسة ، وحاولوا محاصرة قصر الامبراطور الغائب ، وكانت الوسيلة التى اتبعها تفرى فى السيطرة ، واعتقاله لكبار الشخصيات والقادة وعلماء المسلمين ، قد أظهرت دون غموض النية الخبيثة وراء تلك الحشود الداهمة ، فتصارع الرجال المخلصون ، واختطفوا ما استطاعوا اختطافه من سلاح وذخيرة ، ونشبت المعارك اليائسة الضارية ، وسالت الدماء فى الشوارع ، وتحولت المدينة إلى عالم مختلط مضطرب ، تاهت

فيه الأفكار ، وتوالت الضربات العشواء ، كان أنصار إياسو يهبون من نومهم ، وينطلقون إلى الشوارع ويقذفون بأنفسهم وسط المعمعة وجنود تفرى المنظمون يتحركون طبق خطة مرسومة ، لاقت الكثير من الاهتزاز والارتباك إزاء عنف المقاومة التى يبديها الرجال المحاصرون ، وهرول تفرى إلى المطران الأنبا ميتاوس ، وقال فى حزم :

ـ« سيدى المطران ، إن أنصار إياسو فى النزع الأخير ، والمدينة برغم ما فيها من معارك متناثرة يائسة ، إلا أنها فى قبضتنا الآن ، وإننى أطلب منك الآن ما اتفقنا عليه . . أعنى إصدار بيان باسم الكنيسة ورجال الدين بعزل إياسو فوراً . . سيكون بيانك هو الوثيقة الشرعية ، والورقة الرابحة التى تذيعها على الملأ ، ولابد أن يكون البيان الهام مشتملاً على الأسباب والحيثيات القوية ولسوف يبادر قناصل الدول الغربية ، وخاصة فرنسا وإنجلترا ، بالاعتراف بالوضع الجديد وسحب اعترافهم السابق بحكومة إياسو وسلطاته . . »

قال ميتاوس :

ـ« إن عزل إياسو يقتضى تعيين امبراطور آخر ، له صفة شرعية . . »

ـ« إذن فأنت تعترض على تعييني امبراطوراً . . »

ـ « يجب أن تسير الأمور فى حذر يا تفرى . . إنك من الوجهة الشرعية لا تستحق ذلك، وانتهاك الدستور فى مثل هذه الأوقات الحرجة قد يفسد كل مخططاتنا . . »

قال تفرى فى ضيق :

ـ« هل هذا ما اتفقنا عليه ؟؟ »

ـ « إن الإنجليز موافقون على عزل إياسو ، لكنهم لم يوافقوا بعد على تنصيبك امبراطوراً . . »

زمجر تفرى قائلاً:

ـ « إننى على استعداد لأن أتلف كل شىء الآن . . »

قال ميتاوس :

ـ « لن تفعل ذلك ولن تستطيع . . »

ـ « معذرة أيها الأب المبجل . . إن الإنجليز ما زالوا يشكون فى نواياى ، لكنى أكدت لهم أن تعاوننا معهم سيكون على أعلى مستوى ، وفى أغلب الأمور السياسية الحساسة . . إنهم . . »

قاطعه ميتاوس قائلاً :

ـ « إن الوريث الشرعى للعرش لا بد أن يكون من نسل منليك . . »

ـ « من ؟؟ »

ـ « الأميرة « زوديتو » ابنة منليك ، وخالة إياسو . . »

ـ« تريدون أن تأتوا بزوجة غوغسا امبراطورة ؟؟ »

ربت ميتاوس على كتف تفرى فى ود وقال :

ـ « لا تتعجل الأمور يا فتى الكنيسة المحبوب . . يجب أن نمضى فى تدبر وحكمة ، فبلاد الحبشة شاسعة ، والملايين ليسوا فى صفنا حتى الآن ، ولا يغرنك سقوط « أديس أبابا »فلسوف ينتفض المسلمون خاصة ليدافعوا عن الرجل الذى أمَّنهم بعد خوف ، وأطعمهم من جوع ، وبنى لهم المساجد ، ،وحقق لهم الحرية والاستقرار والكسب . . ولسوف يكون توكيلك الحكم دفعة واحدة غلطة كبرى ، إن تلك المخالفة الدستورية، قد تثير العطف على أسرة منليك ،وقد تفسد الكثير من تخطيطنا . . فلتكن زوديتو امبراطورة. ولتكن أنت كفيلاً لها ، وقائداً عاماً للقوات المسلحة ، وستكون القوة العسكرية والسياسية كلها فى يدك ، ولن تكون زوديتو سوى رمز . . إن هذا الرأى قد أقَّره العقلاء من رجال الكنيسة وأصدقاؤنا الإنجليز والفرنسيون . . »

قال تفرى فى ضيق ظاهر :

- « أهذا هو الرأى الأخير . . ؟!»

- « ولا رأى غيره . . »

أدرك مَن بالقصر الامبراطورى حقيقة ما يجرى ، فهبت الامبراطورة ابنة أمير هرر ، وارتدت ثيابها على عجل ، وهرولت نحو باب القصر ، إن الثعابين قد داهمت « أديس أبابا »فى غيبة زوجها الامبراطور ، هؤلاء الجبناء الأنذال ، قد نقضوا العهود وأخلوا بواجبات الشرف ، ليس هذا غريباً على تفرى الملعون ، ألا تأتى الضربة الغادرة إلا من يدك أيها الذئب يا زوج شقيقة الامبراطور . . لماذا يفعلون ذلك بإياسو ؟؟ ألأنه دعا إلى المحبة والتسامح والحرية ؟؟ ألأنه قد وقف فى وجه أطماع رجال الدين ، وتعصب الكنيسة ، وانحراف المبشرين ، وتدخل الأجانب المستعمرين ، ؟؟أم لأنه أعلن عقيدته الشريفة التى ارتضاها عقله ؟ واستجابت لها فطرته ، وتشوقت إليها عاطفته؟؟ وهم يتآمرون عليك يا إياسو لأنك رجل . . حر . . شريف . . مؤمن ،وهم يريدون جيلاً من العبيد الخانعين المستسلمين المتعصبين . . لسوف أخرج إليهم أيها الحبيب إياسو . وأصدهم عن بابك الكريم حتى آخر رمق . . »

واختطفت قطعة من قطع السلاح . . فاعترضها أحد ضباط القصر :

ـ « مولاتى . . إلى أين . . »

ـ « لأسحق رؤوس الثعابين . . »

ـ « إننا نؤدى واجبنا . . »

ـ « إن إياسو لن يسقط . . »

ـ « إن إياسو لن يسقط . . »

ـ « سنفديه بأرواحنا . . »

ـ « وتفـرى لن يرتفع . . . لن يرتفع مطلقـاً . . سـيظل ملتصقاً بالطين . . . ذلك الذى خان أواصر الود والقربى . . »

ـ « لن يدخل القصر إلا على أشلائنا يا مولاتى . . »

ـ « ولسوف يبقى إياسو على الرغم من مكائدهم رمزاً لمجد الحبشـة ، وعنواناً للحب والسـلام ، وتعبيـراً رائعـاً عن دين الله . . لن ينتصروا ولو سرقوا الكرسى من تحته . . لن ينتصروا ولو تسلموا تقاليد الأمور . . »

ثم صاحت بأعلى صوتها :

ـ « أيهـا الرجـال . . دافـعـوا عن حـرياتكم ، وعن دستوركم . . الموت لأعداء الأمة . . »

وأخذت تطلق الرصاص إلى جوار الضباط والجنود الذين

يدافعون عن القصر ، كانت جموع غفيرة مغبرة السحنات ، تزحف كالذئاب الجائعة صوب القصر ، كان عدد المهاجمين يفوق عدد المدافعين مئات المرات ، وسرعان ما أخذ المهاجمون يتسلقون أسوار القصر ، ويتسللون بين أشجار الحديقة الكبيرة ، وبعد فترة من الصراع الدامى الرهيب ، كان القصر يغص بالمتآمرين ، بينما تناثرت جثث الشهداء فى ساحاته وأروقته وعلى الأسوار ، وصاحت الامبراطورة ، والدموع تغرق خديها :

ـ « أيها اللصوص الأنذال . . أخرجوا من بيت الأمة . . أيها المتسللون لن تنتصروا . . »

ثم خرت مغشياً عليها . .

وحينما أفاقت من إغماءتها ، وقعت عيناها على الوجه الكئيب الذى تمقُتُه أشد المقت .

ـ « أيها الرأس القذر عليك اللعنة . . »

قال تفرى باسماً :

ـ « إطمئنى لن يمسك سوء ، ولن يصاب إياسو بأذى ، لا تنسى أنه أخى . . »

ـ « أعرف جيداً أنك صادق الوعد ، وأنك ترعى حرمة الأخوة . . تفرى . . أنت أخبث من أنجبت الأرض . . »

انصرف عنها مهتاجاً ، لكنه تمالك أعصابه ، إن هناك من المهام الجسام ما لا يصح أن ينساه ، إن احتلال العاصمة جزء بسيط من المخطط الرهيب ، والمعركة الحاسمة لم تنته بعد، يجب ألا يفكر فى غير ذلك ، ولسوف يأتى اليوم الذى ينتقم فيه من كل هؤلاء الحالمين المثاليين الذين تمادوا فى حماقتهم . . إن إياسو لم يزل فى الجنوب ، ومعه جيش غير قليل العدد ، وميكائيل أبوه ، مازال يحكم مقاطعة « وللو » والمعركة قد بدأت . . وبيان ميتاوس قد صدر بعزل « إياسو » وتولية « زوديتو » امبراطورة، وتفرى قائداً عاماً للجيش ، وكفيلاً للامبراطورة ، وقناصل الدول الضالعة فى المؤامرة قد أعلنت اعترافها بالوضع الجديد ، ورجال الجيش الغادر ، واتباع الكنيسة ينبثون فى كل مكان ، ينثرون الرعب ، ويقضون على الشرفاء . .

قال تفرى لميتاوس :

ـ « لقد نفذت الخطوة التالية ، أرسلت رسالة إلى«ميكائيل » فى « وللو » موقعة باسم أحد أصدقائه المخلصين بالقصر ، وأخبرته أن أعداء الامبراطور إياسو على وشك أن تسقط

العاصمة فى أيديهم ، وطلب منه أن يبادر بجيشه على أية صورة، كى ينقذ العاصمة ، وبهذا سيتحرك ميكائيل قبل أن يكمل استعداده، وسيسير فى الطريق الخطر الذى نصبنا له الكمائن فيه ، وستتصيد رجاله وهم فى حالة من الإعياء وعدم التوقع . . لسوف يخطط ميكائيل للمعركة على أساس أنها فى العاصمة ، ولسوف تربكه المباغتة ، حينما يجد نفسه محصوراً بين جبلين ، ونيران مدافعنا تنصب عليه من أعلى ومن الخلف ومن أمام ، فضلاً عن أن ما نملكه من أسلحة حديثة كثيرة ، سيحسم الموقعة لصالحنا . . »

قال ميتاوس :

ـ « حسناً . . كونو على حذر ، إن إحكام تدبيرنا ، وتنفيذ الخطة بحذافيرها سيضمن النصر ، وأى خطأ فى التنفيذ قد يكلفنا الكثير ، وربما حياتنا أيضاً . . فإذا ما سقطنا فى يد إياسو أو أبيه فلن يرحمنا أحد . . »

وبدت العاصمة كئيبة حزينة ، يلفها الصمت والرعب ، وينبث فيها الغزاة بعيون يقظة تبرق بالشر ، فلا يكادون يلمحون رجلاً تحوم حوله شبهة من شك حتى تنهال نيرانهم عليه ، وبيوت المسلمين قد دمرت وقُتل من فيها من الرجال والنساء والأطفال ، إن تفرى لا يعرف الرحمة ، وأوامره

صارمة لا يتردد أحد فى تنفيذها وإلا كان مصيره الموت .

وأخذت أجراس الكنائس تدق معلنة النصر الكبير . . لقد سقطت العاصمة ، وسقط إياسو ، وسقطت معه كل القيم النبيلة الشريفة التى آمن بها ، ودعا لها ، وها هو الإرهاب بوجهه الكالح الأسود يطل فى الشوارع والأزقة والمبانى الحكومية ، وفى ضواحى العاصمة ، عادت أيام منليك السوداء ، وعادت الدماء لتخضب التراب الظامئ . . وتهامس المعذبون والمساكين :

لماذا ؟ لماذا ياإلهى ينتصر الشر ، ويفوز الأنذال فى المعركة؟؟اللهم لا اعتراض على حكمك ، ولا راد لمشيئتك . أنت الحكم العدل بيدك مقاليد الأمور . .

قال ميكائيل وهو يشق طريقه عبر الغابات والحقول والقرى الكثيرة :

ـ « كنت طول حياتى لا أثق فى هذا الرجل ، ويوم أن زفوا ابنتى مالفن إليه ، شعرت أنها تساق إلى حتفها . كيف عاشت المسكينة معه طوال هذه السنين ؟؟ وقلت لإياسو يجب أن يفتح عينيه جيداً ، وألا يشتت جهوده ، ويفتح لنفسه جبهات متعددة . . لكن إياسو الطيب كان صريحاً جريئاً ، يكره المداراة والنفاق ، وينفذ فوراً ما يؤمن به . . حاولت إفهامه أن السياسة

حيطة ومداراة ويقظة . . وعملية حسابية دقيقة ، ومقدمات تؤدى إلى نتائج . . لكن لم يكن حريصاً على شيئاً بقدر حرصه على أن يعبر عما يعتلج فى قلبه من مُثل عليا ، وأن يضعها موضع التنفيذ . . كانت مُثله العليا فوق الاحتفاظ بالعرش ، ومن ثم فلم يكن يخاف أى خطر ، أويهاب أية تضحية ما دام يؤمن بما يفعل . لقد كان إياسو الطيب حاكماً يحكمه ضميره ، كان أعداؤه لا يقيمون للضمير ولا للمثل العليا وزناً . . وهكذا خدعوه . . »

قال أحد الضباط الكبار :

ـ « مولاى الأمير . . لقد تعب الجنود ، وأرى أن يلقوا رحالهم حتى الصباح ، كى ينالوا قسطاً من الراحة ، وشيئاً من الطعام . . »

قال ميكائيل :

ـ « هذا مكان غير مناسب ، فالجبال عن يميننا ويسارنا ، فلو داهمنا الأعداء لوقعنا فى مأزق حرج . . »

قال الضباط :

ـ « لن يقدم الأعداء إلى هنا قبل أيام ، فهم مشغولون بالتمكين لأنفسهم فى« أديس أبابا» ، وتلك نقطة الضعف فيهم ،

لقد ركزوا اهتمامهم على العاصمة ، ظانين أن الاستيلاء عليها يحسم المعركة ، ثم لا تنس أن معلوماتكم الخاصة تؤكد أن الحشود المتآمرة تقف حول العاصمة وبداخلها ، وهناك ستكون المعركة الفاصلة . . »

ـ « حسناً فلينطلق النفير ، وليلق الرجال رحالهم . . »

واضطجع أغلب الجنود ، وسرعان ما راحو فى سبات عميق ، أما ميكائيل فقد خاصم النوم جفنيه ، إنه يخطط للمعركة ، ويتدارس أبعادها ونتائجها ، ومن آن لآخر تثب إلى ذهنه صورة صهره الخائن « تفرى » عميل الكنيسة ، وربيب الاستعمار ، ومستنقع الحقد والغدر والخيانة . .

وينهال الرصاص كالمطر مع الفجر الوليد ، ويثب ميكائيل من خيمته ، ويخرج إلى الظلام ، إن الموت ينهمر من كل مكان ، ماذا جرى ؟؟ أيمكن أن نكون قد وقعنا فى فخ محكم من صنع الداهية الأسود القلب ؟؟

ـ « مولاى . . مولاى . . إنها لكارثة كبرى ، جموع ضخمة من العدو تحاصرنا من كل ناحية . . »

قال ميكائيل :

ـ « لقد وقعنا فى خطأ جسيم . . »

« ماذا نفعل ؟؟ »

ـ « فلننسحب على الفور أعتقد أن الطريق أمامنا مزروع بالأعداء المسلحين . . يالها من خطة ماكرة . . قلت لكم بالأمس إنه مكان غير مناسب . . هيا ، . . أصدروا الأوامر بالانسحاب على الفور . إن ذلك أقل خطراً . . لقد أعطينا العدو فرصة ذهبية . . ثم إن المعلومات التى أتتنا من « أديس أبابا » كانت مختلقة أو مغرضة . . »

أفاق الجنود على دوى المدافع والقنابل ، والمصابيح الكاشفة ، وأخذوا يتراجعون دون نظام تاركين خلفهم الكثير من المؤن والعتاد والمهمات ، وكانوا يردون بالمثل بطريقة عشواء، إنهم لا يرون شيئاً ، وعدوهم يستطيع أن يصب نيرانه فى تلك المنطقة المحصورة الضيقة ، وهو واثق أن رصاصته لن تطيش . . كانت حركة الانسحاب عسيرة . فالأرض المكشوفة تبعد أميالاً كثيرة والوادى الضيق الذى يسلكه ميكائيل ورجاله ، ما زال هدفاً ثميناً للأعداء ، وما أن أشرق الصباح ، حتى التحم الفريقان فى معركة رهيبة ، دافع فيها ميكائيل ورجاله دفاع الأبطال المستميتين ، وفقدوا الكثير من الشهداء ، وتحت أشعة الشمس الدافئة تلفت ميكائيل حواليه . . ما زال الجبل يحيط به من يمين ويسار ، والأعداء يتواثبون على مشارف الجبال ،

وتتدفق موجاتهم من أمام وخلف ، إنهم أكثر عدداً ، وأحكم خطة . .

ورفع ميكائيل عينين ضارعتين إلى السماء « إلهى . . إلى من تكلنا ؟؟ إلهى هؤلاء هم جنودك المستضعفون ، فلتؤيدهم بنصرك الذى وعدت ، ولتمنحهم الصبر والقوة ، أو فارزقهم الشهادة فى سبيلك ، كى يلقوك أبراراً أحراراً طاهرين ، رفضوا الذل ، وأبوا الخنوع ، ورفضوا سبيل الغدر والخيانة . . »

ماذا يمكن أن يحدث ؟؟

إن المعجزة لم تتحقق ، وسقط الآلاف شهداء على أرض المعركة العنيفة . . وتلفت « ميكائيل » حوله ، فوجد فوهات البنادق تحيط به من كل جانب . . لقد سقط أسيراً . . وبعث بنظراته إلى بعيد . . فوجده قادماً . . ذلك الرجل صاحب الوجه الجامد واللحية المتعفرة ، وما أن اقترب منه حتى صاح ميكائيل فى وجهه حانقاً :

ـ « لقد فعلتها ياتفرى . . . »

ـ « معذرة أيها الصهر العزيز . . إن ما نحارب من أجله فوق صلة الرحم والمصاهرة . . إنها إرادة الرب يسوع . . »

قال ميكائيل :

ـ « أتعرف الله جيداً يا تفرى ؟؟ »

ـ « أتشك فى ذلك ياصهرى العزيز ؟؟ »

ـ « إن الله لا يحب الفتن والمؤامرات الدامية . . ولا الغدر يا تفرى . . »

ـ « هذه وجهة نظر قد أخالفك فيها . . إنها ليست فتناً ولا مؤامرات ولا غدراً . . بل حرب تحرير لأبناء المسيحية من براثن الزحف الإسلامى . . لقد تنكر إياسو لدين الآباء والأجداد ، وجرَّ البلاد لحرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، كان السكوت على ذلك هو الخيانة . . »

هز ميكائيل رأسه وقال :

ـ « إنكم تفلسفون انحرافكم ياولدى ، إن ما تقوله باسم المسيحية والمسيحيين ، يمكن أن يقول إياسو مثله باسم الإسلام والمسلمين ، فلماذا لا تنحى ذلك جانباً ، إن الأصل فى الموضوع هو أن يكون الحاكم عادلاً رحيماً بشتى أبناء العقائد المختلفة ، وأن يكون معبراً عن إرادة الغالبية . . »

قال تفرى :

ـ « إن بلادنا مسيحية ، وستظل مسيحية للأبد . . »

تنهد ميكائيل فى أسى وقال :

- « إن المسيحى الطيب لا يفعل ما تفعله أنت الآن ، ولا يقول مثل تلك الآراء . . »

وخلع تفرى غطاء رأسه ، ثم انحنى أمام صهره ، وقال :

- « ستكون ضيفى لبعض الوقت . . معذرة ، فليس فى إمكانى إطلاق سراحك الآن . . إننى أنفذ إرادة أكبر من إرادتى . . لقد أصبحت « زوديتو » امبراطورة للبلاد . . »

قال ميكائيل :

- « لا يهمنى ما يحدث ، سيان عندى أن ألقى فى سجن ، أو يضمنى قبر ، أو أمضى فى شوارع المدينة . . لقد أصبحت حياتى بعدما حدث ، وفى ظل مفاهيمكم السقيمة لا طعم لها . . إن إرادة الله فوق كل إرادة . . »

***

وهناك بعيداً فى المقاطعة التى يحكمها تفرى، وفى قصره المنيف ، كانت تقيم زوجته « مالفن » ، ورأت تحركات الجيوش الضخمة نحو « أديس أبابا» فخفق قلبها فى رعب ، لكنها تماسكت ، وقالت لنفسها : « لا شك أن إياسو قد علم برسالتى؟ ولا بد أنه عاد من الجنوب ليحمى عاصمة ملكه ، ولسوف يلقى تفرى الخائن جزاء خيانته وغدره ، لسوف يقع فى الحفرة التى حفرها لأخى . . »

وأرادت أن تغـادر جناحـهـا الخـاص . لتلتـقى بالخـدم والحراس وتستطلع الأنباء فى اليوم التـالى لكن أحد الضبـاط الواقفين بالخارج لدى الباب قال :

ـ « معـذرة يامـولاتى . . إن الأمـير قـد أصـدر أوامـره بألا تغادرى جناحك الخاص . . »

ـ « مستحيل . . إنك تمزح ، أيسجن تفرى زوجته ؟؟ إن فى ذلك إهانة كبـرى لى ، وله أيضاً . . مـسـتـحيل أن يحدث ذلك . . دعنى أمضى . . »

ـ « لا أستطيع أن أخالف الأوامر يا مولاتى . . »

ـ « إنها وقاحة . . »

ـ « أعلم ذلك . . »

ـ « لعلك فهمت الأمر خطأ . . »

ـ « إنها أوامر مكتوبة وصريحة ، ويعرفها كل من بالقصر ، وعلى رأسهم قائد الحرس » .

صـمتت « مـالفن» برهة . قـد طفح قلبـهـا بسيل عـارم من الحقد والكراهية والاحتقار :

ـ « إنكم آلات قذرة فى يد طاغية لا يرحم . . »

ـ « لا يصح أن تسيئ الى زوجك يا مولاتى . . »

ـ أنه يريدنى رهينة لا زوجة . . »

ـ « إن أمر الدولة العليا فوق كل اعتبار . . هكذا قالت الأوامر يا مولاتى . . »

صرخت فى حدة :

ـ « أيها الأذلاء . . يا من ترتعون فى ذل الخوف والرذيلة والتعصب . . أنتم جيل من العبيد الأخساء . . »

ثم رفعت يدها ، وأهوت بها على وجهه بصفعة قوية ، فبقى الضابط ثابتاً فى مكانه دون أن يتحرك . . ثم تمتم فى برود :

ـ « لن أستطيع السماح لك بالخروج . . تلك هى الأوامر . . »

وعادت إلى حجرتها دامعة العينين ، جريحة الفؤاد ، مثلومة الكرامة . . عالم عاص متمرد ، يملؤه الثعالب والذئاب والثعابين ، يلفه الظلام الحالك . عالم يركع ويجثو فى الأوحال، ويلوث جبينه بالعار والمذلة ، لا أرى جبهة عالية وضاءة تسمو على كل الجباه إلا جبهة الحبيب إياسو . . إياسوالإنسان الكبير الذى عرف الطريق إلى الله . . أشهد الله أنك على حق يا إياسو العظيم . وأشهد الله ثانية أننى لن أهبك يا تفرى اللعين شيئاً من جسدى ، ولن أفتح لك قلبى . . »



« لك الله يا إياسو ، ثلاث سنوات حكمت فيها الحبشة مرت كالحلم الجميل ، أشرقت فيها الوجوه بالحب ، وفاضت الأنهر بالخيرات ، وابتسمت السماء للورود الندية ، ثلاث سنوات أيهل المؤمن الأصيل ، وأنت تحاول جاهداً أن تقتلع الزيف والخداع ، وأن تسحق مشاعر التعصب الأعمى، وتعطى بسلوكك الحى أروع الأمثلة للحكم العادل ، كنت تعمل فى النور ، وتتحدث فى النور ، وتبسط الرأى وتناقشه فى النور ، أما أعداؤك ـ أعداء السلام والإسلام ـ فقد تستروا وراء الظلام ، وأظهروا خلاف ما يبطنون ، وتكلموا بما لا يعملون ، وأخفوا حقدهم خلف الابتسامات الكاذبة ، والولاء المزيف . . مسكين يا إياسو . . . يا نجم الأمل فى ليل الحبشة الحالك السواد ! »

هذا ما كان يردده لسان الشعب البائس المغلوب على أمره ، والذى فجع فى آماله على حين غرة ، لكن الشعب الأعزل لم يكن لديه غير التأوهات المكتومة والدموع التى يذرفها فى ليالى الألم والانتظار ، وانفجر الشعب فجأة . . ، تمردت ولايات ، وثارت « أديس أبابا» ، وخرج الألوف العزل يهتفون باسم

إياسو صاحب الحق الشرعى ، وحبيب الملايين ، وهزت الهتافات أرجاء المدينة ، وأقضت مضاجع المتآمرين، وكانت هذه الثورات رداً حاسماً على دعاوى المبطلين ، إن الشعب لا يريدهم ، فهو يعرف آثامهم ونواياهم الخبيثة، والشعب لا يريد غير إياسو الامبراطور الشاب، الحكيم النظرة ، الساطع المحبة ، العادل فى أحكامه ، وبات جلياً أن السكوت على هذه التظاهرات أمر خطر ، يدمر كل ما رسمته يد الفتنة الشيطانية ، إن تملق الشعب لم يجد نفعاً، وتلك الألاعيب والحيل التى قدمها « تفرى »لم تنطل عليه، فإما أن يتراجع تفرى أمام رأى الشعب وغضبته الأبية ، وبذلك يفقد سلطانه وأمله وأمل الكنيسة فيه ، وإما أن يمضى فى طريقه مهما كلفه ذلك من ثمن، مدعماً ببيانات الكنيسة ورضاها ، مسنوداً بعون الحلفاء وتدبيراتهم الخبيثة.

وأخذ تفرى يحادث نفسه :

ولكنها فرصة العمر يا تفرى إن أم الامبراطور وأباه وأخوته وزوجته كلهم رهينة فى يديك . والعاصمة قد سقطت أمام ضرباتك ، والمواقع العسكرية الممتازة ، تسيطر عليها قواتك ، والحلفاء يقدمون إليك ما أنت فى حاجة إليه من المال والسلاح والمعونات الفنية . . فلتسحق هذه الثورة الشعبية المضادة يا

تفرى . . لتفرق شملها . . فما هو الشعب ؟؟ مجموعة من الغوغاء الأغبياء الذين سحرتهم كلمات إياسو المجنون ، وحماسه الأرعن . . الشعب قطيع من الخراف الضالة ، قد تفرقها صيحة بلهاء أو تجمعها عصا راع حصيف . . . والشعب ياتفرى كأطفال المدارس يصابون بالذعر والهلع أمام إرادة المعلم القاسى ، فينتظمون ويطيعون ولا يهمسون . . والشعب يا تفرى لا وزن له فى نظر الساسة الحصفاء . . . إنه قوة وهمية ، طبل أجوف لا يصدر عنه إلا الضجيج الأخرق الذى يصم الأذن ، دون أن يغير فى الأمور تغييراً فعلياً .

السلاح هو القوة الحقيقية ، والمكيدة هى التى تحرك هذه القوة . إن الملايين العزل يحبون إياسو . . أعرف ذلك . . وهديرهم يملأ الآفاق . . لكن مدافعى سوف تقضى على هذا الضجيج الأرعن ، سوف تقضى على المعنى الأسطورى أو الخرافة . . . سوف تقضى على ما يسمونه الشعب . . »

وأصدر تفرى أوامره للجنود فى كل مكان :

ـ « يجب أن تحصدوا هذه التجمعات الشعبية بمدافعكم ، نكّلوا بها أسوأ تنكيل ، لا تأخذكم بهم رحمة ولا شفقة ، فلتحرقوا القرى الثائرة عن آخرها . . لا ترحموا شيخاً أو طفلاً أو امرأة . . يجب أن تنفذوا هذه الأوامر بحذافيرها عن إيمان

عـميق ، لكى تحفظوا وحدة الشعب وحريته واستقلاله . .
سيروا على بركة الله أيها الرجال الشجعان والنصر لنا . . »

واستطار الشر فى كل مكان ، وعادت الأرض بما تحمل من آثام وخطايا ، باسم الصليب تداس الحـرمـات ، وتزهق الأرواح ، وباسم الحرية السمحاء يرسف الملايين فى قيود العذاب والأحزان والقهر . . أجل . . سيروا على بركة الله يا جنود الله تفرى ، وأشعلوا النار فى قلوب المساكين وفى بيوتهم أيضاً . . . .

وحوصرت إحدى القرى الصغيرة فى أواسط الحبشة ، وأبدت القرية الصغيرة مقاومة باسلة ، وظلّت أعلامها تخفق فى الآفاق مكتوب عليها « لا إله إلا الله » . . . استعصت على قنابل تفرى ومدافع جنوده ، وتفرى ليس لديه وقت يضيعه فى جلب الإمـدادات ، أو الرضى بالمناوشـات والمعـارك غـيـر الحـاسـمـة، ومن ثم أرسل وفـداً من قـبله للقـرية ، ليـعـرف مطالبهم :

ـ« ماذا تريدون ؟؟»

ـ « إن إياسو صاحب السلطة الشرعية »

ـ « سنعطيكم من الميزات أكثر مما أعطاكم إياسو . . »

ـ « نحن لا نبيع ولا نشترى . . إنما نطلب الحق . . »

ـ « إذن فلتلقوا السلاح ، ولتنسحب جنودنا ، ولنتعاهد على ألا يتعرض أحدنا الآخر بأذى . . لا داعى لأن يسقط الرجال قتلى فى معركة أكبر من قريتكم وقوتكم ، ولتنتظروا لمن يكون النصر . . إن فى مقدورنا أن نجلب إليكم عشرات الألوف فيسحقونكم سحقاً . . أيها الشيوخ . . أيها العلماء . . يا رجال الرأى فى القرية التزموا الحكمة ، وكفى ما أريق من دماء . . »

ولم تكن إمكانات القرية تسمح لها بالمزيد من المعارك والضحايا ، فوافقو على اقتراح تفرى ، وانسحبت قوات تفرى وأخلدت القرية للراحة والنوم بعد ليال من العذاب والقتل والدماء . . وفى الفجر عادت القوات الغادرة وعلى رأسها تفرى، ودهمت القرية الحصينة على حين غفلة . . كانت المعارك داخل البيوت وفى الأزقة والحارات الضيقة « عليك اللعنة يا تفرى . . أيها الرأس الغادر الكذاب » أصوات الضحايا تنطلق فى كل مكان مرددة اللعنة . . وجلس جنود تفرى المنتصرون يتقارعون الكؤوس ، ويغنون ويعربدون على الأنقاض ، ويدوسون الأشلاء بأحذيتهم الثقيلة ، ثم أشعلوا فيها النيران ، فأتت عليها عن آخرها . . الخريف الحزين يبكى

بدموع السماء ، وجثث الأطفال تنهشها الذئاب ، والأشجار الخضر قد أكلتها نيران الحقد ، والزهور البديعة داستها الأقدام . . وأصدر تفرى أوامره :

ـ « إننى أهدى هذه القرية بمزارعها الشاسعة للكنيسة ، وإننى آمر ببناء قرية نموذجية ، فى وسطها كنيسة شامخة ، مكان المسجد القديم . . فلتدق الأجراس ، ولتعلُ التراتيل ، ولتقام الأفراح . . ابتهاجاً بالانتصار الذى وهبه لنا الرب يسوع . . »

وجاءه من بعيد صوت امرأة عجوز :

ـ « تفرى أيها الشيطان . . أنت لا تعرف الله . . الرب يسوع يكرهك . . »

قال تفرى :

ـ« هذه العجوز الخرقاء كيف أفلتت من الموت والدمار؟؟اقتلوها . . »

قالت وطلقات مدفع تنصب عليها :

ـ« أيها المخمور . . إننى مسيحية أعبد الله . . عشت وأولادى فى القرية فى سعادة ونعيم ، حتى أتيتم وهدمتم عشى ، وقتلتم أولادى . . فليقذف الله بكم الى الجحيم . . . »

وأطبقت المسكينة فمها إلى الأبد . . وحينما اقترب منها

تفرى نظر إلى ذراعها العارى . . . كان وشم الصليب يبدو واضحاً مخضباً بالدماء ! . .

***

قال المطران ميتاوس لتفرى عندما زاره الأخير ، بعد القضاء على التظاهرات الشعبية ، وجيوب المقاومة التى انبثقت فى شتى الأماكن :

ـ « شكراً أيها العزيز تفرى ، لقد أثبت كفاءة نادرة فى إدارتك لدفة المعارك فى كل مكان ، كما أنى أكرر الشكر للهدايا والهبات التى قدمتها للكنيسة ورجالها . . »

قال تفرى وابتسامة ماكرة ترتسم على فمه المقيت :

ـ « هذا قليل من كثير . . إننا لم ننتصر إلا ببركاتك أيها الأب المقدس . . »

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً :

ـ« لسوف آمر بهدم المساجد ، ولسوف يقام مكان كل مسجد كنيسة . . ليس هذا فحسب ، بل ستُبنى بأيدى المسلمين أنفسهم ، وستكون جميع تكاليف البناء من أموالهم ، ولسوف أعمل على تحويل مُلاك الأراضى الزراعية من المسلمين إلى عبيد للأرض ، بعد أن أهب هذه الأرض للكنيسة ولجمعيات التبشير

التى ترضى عنها ، لقد كان فى نيتى أن أذبح كل مسلم على ظهر هذه البلاد ، لكنك تعلم أنهم ماهرون فى الزراعة والصناعة ، ونشاط البلاد الاقتصادى يعتمد إلى حد كبير على جهودهم المتصلة . . نحن فى حاجة ماسة الى هؤلاء الأذكياء الذين يمتازون بالدأب والصبر ، ولسوف أضع لهم برنامجاً حازماً للتنصير ، سيكون لك فيه اليد الطولى ، لقد أصدرت أمرى فعلاً بإغلاق المدارس التى تدرس العربية ، والمكاتب التى تعمل على تحفيظ القرآن ، وطلبت من الشرطة القبض على أي عالم أو شيخ يحاول أن يلقى دروساً للوعظ والإرشاد ، لسوف تجف منابعهم الفكرية والثقافية ، ولسوف انتزع منهم الأرض ، ولسوف أظل معلقاً سياط التنكيل على رؤوسهم ، فيعيشون فى جهل وفقر وخوف ، وبهذا نقضى على الإسلام والمسلمين قضاء مبرماً . . . أهناك ما يمكن أن أقدمه قرباناً للرب يسوع ، وللكنيسة الموقرة أكثر من ذلك ؟! »

قال ميتاوس وقد أشرقت ملامحه بالبهجة والسرور :

ـ « رائع . . رائع . . إنك تحقق ما كان يحلم به الآباء والأجداد من قديم الزمان . . »

ثم بدا الاكتئاب فجأة على وجه ميتاوس ، وقال :

ـ « لكن ، يا للأسف : !! »

قال تفرى مندهشاً :

ـ « ماذا ؟؟ »

ـ « إياسو . . إنه لم يزل طليقاً ، يعيش فى أطراف البلاد ، وبين التلال والغابات ، يثير الحاقدين ، وينشر الفساد ، ويجمع الأتباع . لكم تمنيت أن أقبض على عنقه بيدى هذه . . لشد ما أكرهه . . أعرف أنه صهرك . . لكنه عصى المسيح ، وأفسد علينا حياتنا بترهاته ، وما زال يمثل تهديداً مباشراً لا يمكن تجاهله . . »

قال تفرى ضاحكاً :

ـ « إنه لا يشكل فى نظرى خطراً يذكر ، إنه مجرد قاطع طريق أو لص آبق يتيه فى الجبال ، وسط نخبة حاقدة لا وزن لها ، إن معظم الحبشة فى أيدينا بمدنها الكبرى وقراها وبحيراتها وغاباتها . . ثم إن إياسو لابد وأن يسقط فى يدى . . إننى أدبر له تدبيراً محكماً ولن يفلت ، أنا أعرف من أين آتى هذا الرجل . . أنا لا أخاف المثاليين والحالمين من أمثاله ، إن طيبته هى نقطة الضعف فيه ، وصراحته قد أوردته موارد الموت ، وثقته الكبرى بالشعب قد أورثته البله والإهمال . . ثم لا تنسى أن أسرته كلها رهينة لدينا . . »

قال ميتاوس :

ـ « إننى لا أخافه . . لكنه مجرد رمز . . خطراً لا بد من القضاء عليه ، سيظل هذا الرمز أملاًيخفق فى صدر المضطهدين من المسلمين والمسيحيين المجانين على السواء . . يجب أن نقضى على هذا الرمز يا تفرى ، وإلا ظل الخطر محدقاً بنا . . »

قال تفرى فى ثقة :

ـ « إننى كبير التفاؤل . . فالحلفاء يتقدمون ، وتركيا تنهزم، والعالم الإسلامى والعربى يئن تحت ضربات الحلفاء ، والظروف الدولية والتاريخية ليست فى صالح إياسو وأمثاله . . هذا يومنا الأغر أيها المطران العظيم . . إننى أزن الأمور بميزان حساس ولا أترك شيئا للصدفة . لقد انتهى إياسو إلى الأبد . . ولم يبق إلا زوديتو . . »

قال ميتاوس :

ـ « زوديتو ؟؟ مالها؟؟ »

ـ « الامبراطورة التى يتحقق فى ظلها النصر ، وتجلس على كرسى لا يناسبها ، التاج لمن يحميه ويدافع عنه ويرفعه إلى أوج السماء . . إننى أعجب كيف يحدث ذلك . . »

التفت إليه ميتاوس معاتباً :

ـ « ماذا جرى لك يا تفرى ؟؟ هذا أمر درسناه ووصلنا إلى رأى نهائى بشأنه . . إن زوديتو لا تعدو عن كونها لعبة نضحك بها على الشعب ، كى تكتسب سياستنا صفة الشرعية . . إننا نفعل ما نشاء باسمها دون أدنى اعتراض منها »

ولم يكن تفرى مقتنعاً تمام الاقتناع بهذا الرأى ، فهو يعتقد أن الشعب الذى أُرغم على الرضاء بعزل إياسو فى الإمكان إرغامه على قبول تفرى امبراطوراً ، لا ينكر تفرى أن له أعداء كثيرين ، وأنه مكروه من غالبية الشعب ، لكن تولِّيه الملك صراحة سوف يزيد من أنصاره ، وسيعطيه الفرصة للقضاء على منافسيه من حكام المقاطعات ورجالات الأسرة المقدسة وأقربائها ، لكن ميتاوس كان يرفض وجهة نظر تفرى ، ويرى فى ذلك تعجلاً وعدم تبصر لأنه قد يؤدى إلى انتكاسه خطيرة ، وقد يبذر بذور الشقاق بين كبار رجال التكتل المسيحى المتعصب، ومن ثم قد يجد إياسو ثغرة ينفذ منها ، ويسترد عرشه المغتصب ، ثم إن الأحقاد والمطامع الشخصية بين المتنافسين قد تلجئ بعضهم إلى الانضمام إلى إياسو المسلم نكاية فى إخوانهم المسيحيين أو نكاية فى تفرى الذى أمسك بزمام جميع الأمور فى البلاد .

وقال تفرى :

-« لا تنس أن زوديتــو أخت « شــو أرقــاش »و أنهــا خــالة إياسو . . . »

هزّ ميتاوس كتفيه فى سخرية وقال :

- « لا يهم . . إن زوديتو فى الحقيقة لا تملك شيئاً . . إنها عارية من السلطة الفعلية ثم إن عيوننا تلاحقها أينما ذهبت، وحيثما حلّت . . إن زوديتو تعيش فى قفص ذهبى صنعناه لها . . »

قال تفرى :

- « لكم أخاف زوجها ذلك المدعو « غوغسا » . . إنه شرير ذو مطامع ، وقد يحاول أن يحطم ذلك القفص الذهبى ليحرر زوجته منه ، ومن ثم يستطيع أن يجمع من حوله الأتباع وذوى النفوذ من رجال السياسة والحرب والكنيسة ، عندئذ يسقط فى أيدينا ، ونساق إلى حيث يسقينا الذل والهوان . . »

وأنهى ميتاوس المناقشة قائلاً :

- « إنك تبالغ كثيراً يا تفرى ، إن غوغسا ليس على هذه الحالة من السوء والقحة . وزوديتو ليست بالطفلة الهازلة التى تنساق وراء عواطفها ، أو تتبع نزوات زوجها . . لقد انتصرنا على إياسو أخطر رجل فى تاريخ الحبشة الحديث . . وهذا يكفى . . »



استمع « إياسو » إلى الأخبار الواردة إليه وهو فى الجنوب بدهشة بالغة ، لم يصدق أذنيه حينما أخبروه أن العاصمة سقطت فى يد تفرى وأعوانه ، وارتج عليه وهو يفكر فى سقوط القصر الامبراطورى وبه زوجه وأفراد أسرته ، آه . . لقد فعلها تفرى، تفرى الذى كان يخفى مطامعه وراء قناع من الصمت الأسود ، أو وراء كلمات معسولة تتحدث عن الولاء والوفاء وأواصر النسب والقربى ، وفعلتها الكنيسة التى ادعت الطاعة والموافقة على سياسته، تلك المؤسسة البائسة التى تنضح بالدهاء والتعصب ، وفعلها الجنود المغرر بهم . . وأين الشعب؟؟ أين ذهب هذا الدرع الواقى ، وذلك الحصن الحصين الذى كنت أعده للأزمات والشدائد؟؟ لقد حملت لواء الحرية ، ودعوت إلى التسامح والإخاء ، وحاولت جاهداً أن أنعش حالته الاقتصادية والمعاشية والفكرية . . . كنت صديقاً للجميع : الفقراء والأغنياء ، المسلمين والمسيحيين والوثنيين . حميت حرمات البيوت والمزارع والمساجد والكنائس . . . فلمَ لا يحطم الشعب مؤامرة المتآمرين ؟؟

لشد ما يشعر إياسو بالحزن والألم العميق ، أكان خاطئاً فيما يفعل ؟؟ وهل كان من الضرورى أن يعتصم بالدهاء والخديعة ، وأن يضرب بيد من حديد على كل حبشى تحوم حوله الشبهات حتى ولو كان تفرى أو القساوسة ؟؟ أتراه يندم الآن على تمسكه بالقيم الإنسانية الرفيعة ؟؟ أكان جده منليك على حق حينما سحق أعداءه ، وأذلَّ معارضته ؟؟ أتلك هى النهاية الحزينة التعسة للأيام المتلألئة النابضة بمعانى الخير والحب والرضى ! !وتشنَّجت أصابعه على بندقية يحملها ، وقال وقد هزَّه الانفعال :

ـ « أيها الرفاق المؤمنون . . هل تروننى أخطأت ؟؟ أكنت على باطل ؟!»

قال أحد الشيوخ الأتقياء :

ـ « أيها الامبراطور المؤمن . . لا تجعل النكبة تسيطر عليك ، وتضعف من إيمانك بالله وبالقيم العريقة التى دعوت إليها ، إن انتصار الشر يا إياسو الطيب لا يعنى أنه صواب . وإن هزيمة الخير فى إحدى المعارك ، وفى عصر من العصور لن تنال من قدسيته . . . إنه هو رسالة الأنبياء والمصلحين ، إن القوة الغاشمة يا إياسو الطيب لن تحيل النهار إلى ليل ، ولن تفجر النور فى الليل البهيم . . إن تفرى وجنوده على باطل وإن انتصروا وساقوا العباد طوع إرادتهم الشقية ، وإنك يا إياسو

على حق وإن تشردت فى الآفاق ، وسكنت الكهوف ، ولاحقتك وحوش البرية . . حينما اضطهد محمد وأصحابه ، وشردوا فى الأنحاء وحوصروا فى شعاب مكة . . كانوا على حق . . . وحينما خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة تحت ضغط قريش واضطهادها كان على حق . . ولم ينهزم جيش محمد فى« أُحد » لأنه على باطل . . . كان على حق فى سويعات الهزيمة والنصر . ما أكثر ما يتعرض المؤمنون للابتلاء والامتحان الشديد، فيستشهدون ، ويعذَّبون ، ويُسجنون ، ويطاردون، . . . لكنهم فى النهاية ينتصرون . . أعنى تنتصر مبادؤهم . . أجل أيها الصديق المؤمن إياسو . . انتصر يزيد بقوته المادية الهائلة ، وانتصر الحسين بمبادئه وقوته الروحية عبر الأجيال والحقب . . لقد اختلفت صورة النصر . . ذهب يزيد إلى كرسى الحكم ، وذهب الحسين إلى أريكة الشهداء فى الجنة . . أى إياسو الحبيب إن دولة الباطل ساعة . . ودولة الحق إلى قيام الساعة . . وليس أمامنا أيها الامبراطور الطيب إلا الاستمساك بالحق وإن كان مراً ، فإما النصر أو الشهادة فى سبيل الله . . والشهادة أروع من النصر . . سيظل صوتك مدوياً عبر القرون ، وستردده الأكام فى كل الآفاق . . »

قال إياسو فى اكتئاب :

ـ « أيها الشيخ الجليل . . إن أمى فى قبضة الشيطان »

ـ « أعرف ذلك . . وأعرف أن زوجتك أيضاً وأختك وصهرك وكل أفراد أسرتك . . فماذا أنت فاعل ؟ . . »

أدرك إياسو ما يرمى إليه الشيخ ، فقال :

ـ « لن أستسلم . . »

ـ « هذا حق . . إنهم أمانة . . كلنا فى قبضة الله . . حتى الشيطان نفسه لا يستطيع أن يخرج من حكم الله . . وتفرى . . مهما كانت انتصاراته مخلوق ضعيف ، إنه ألعوبة فى الأيدى الخبيثة المتمردة . . وتفرى له بداية ونهاية ، الخلود لله وحده يا إياسو الطيب . . »

احتقن وجه إياسو وزمجر :

ـ « الخائن يحبسهم لديه كرهينة . . وزوديتو الامبراطورة هى الأخرى واجهة زائفة يخفى وراءها ألاعيبه ومكائده . . إن الحبشة اليوم يحكمها عصابة من الشياطين ، يحكمها المتعصبون من رجال الدين ، والطامعون من رجال السياسة والحرب ، والمستعمرون من الحلفاء ، إن الحال على أسوأ ما تكون . . »

ثم دق الأرض ببندقيته وهدد :

ـ « إننى أشعر بالعجز القاتل . . أشعر الآن أنى مجرد فرد

أو مجموعة من الأفراد المجردين التعساء فى مواجهة حشود هائلة مدججة بالسلاح والحقد الأعمى . . لكم أتمنى أن أكون قوة سحرية خالدة لا تموت فأنقض عليهم واحداً واحداً وأذيقهم الدمار . . إن العار لا يصح أن يبقى . . والباطل يجب أن يسقط . . إن العجز يمزقنى . . يمزق روحى ليكن الموت . . »

ودقت الطبول ، وانطلق إياسو على رأس رجاله من غور إلى غور ، ومن غابة إلى غابة ، يخوض المستنقعات ، ويعبر الأنهار ، ويرافق قطعان الحيوانات والفيلة والوحوش ، وينقض على كوكبه من جنود تفرى فيمزق شملها ، وينتقل من معركة إلى معركة ، ومن قرية إلى قرية ، لكن طوفان الشر يلاحقه ، فيحرق القرى التى تؤازره ، ويقيم فيها القواعد ، ويشيد الكنائس ، ويسبى النساء ، ويقتل الشباب . .

خمس سنوات أو تقل قليلاً من الكدح والعناء ، يقتحم خلالها إياسو مواطن الموت والخطر ، ويشق طريق الأهوال بين النيران والملاحقة ، إنهم يطاردونه فى عنف قاتل ، وخاصة بعد أن هُزمت تركيا ، وانتصر الحلفاء ، وتدفقت أسلحة الحلفاء على « تفرى » أكثر وأكثر . . والإرهاب يجتاح القرى والمدن ، لكن الشعب لم ينس الحبيب إياسو . . لقد غدا أسطورة شجية على ألسنة المعذبين الذين يتغنون بالخلاص والتحرر والأمل

العذب . . إن أنباءه تسري في كل مكان ، وعلى كل لسان . . وميتاوس المطران يصرخ في وجه « تفرى » .

ـ « قلت لك ألف مرة يجب أن تقضى على هذا « الرمز » الخطر . . لابد من القبض على إياسو أو قتله . . إن الكنيسة على استعداد لأن ترصد لك ما تشاء من الرجال والمال والإمكانات . . »

وتفرى يبعث بالسرايا تلو السرايا، ولا يكف عن حياكة المؤامرات ، ويشيع أنه سوف يقتل أفراد أسرة الامبراطور المعزول ما لم يسلم نفسه ، ويكف عن المقاومة . . إن المطاردة والمعارك الصريحة الواعية لا تحقق لتفرى النصر السريع . . لابد أن يغدر ويراوغ حتى يبلغ مناه .

أرسل إلى «إياسو » طالباً التفاوض ، لم تنطل الحيلة على إياسو على الرغم من أن تفرى قد أقسم بكل عزيز وغال، وبحق أواصر القربى والنسب أنه لن يصيب إياسو بسوء ، فقال إياسو ساخراً :

ـ « علام التفاوض ؟؟ أظنه يحاول إيهامى بأنه على استعداد لقبول عودتى إلى كرسى الحكم . . هذا مضحك . . أم تراه يساومنى على وقف الحرب وتركى للحبشة مع أفراد أسرتى ، مع رصد راتب لنا ؟؟ أم تراه يريد منى أن أصدر بياناً بقبول ما حدث ، وأن أحيا كأى مواطن حبشى !! إننى أعرف

تفرى جيداً . . أعرف أنه ذئب مراوغ وأنه لا يقبل بغير القضاء
علىّ وعلى أسرتى قضاءً مبرماً . . ألا فليعلم تفرى أننى لن
أضع يدى الطاهرة فى يد الخيانة والغدر ، اليد التى تلوثت بدماء
الأبرار والأحرار والشرفاء . . »



أطلقت « مالفن » لدموعها العنان حينما علمت بسقوط العاصمة وأسر أبيها ، وزادها ألماً أن أخاها الشاب يعيش مطارداً فى أطراف المملكة ، يبذل الجهود المتواصلة فى محاولة يائسة لاسترداد حقه ، وإنقاذ شعبه ، وكانت الفرحة تموج فى قلبها كلما جاءتها أنباء عن انتصاراته الصغيرة ، أو كلما سمعت بثورة شعبية فى أية ناحية من أنحاء المملكة تدعو إلى إعادة أخيها إياسو ، وأخذت مالفن تفكر ، كيف تقابل زوجها تفرى عند عودته ؟ وهل ستذهب لتقيم معه فى العاصمة؟؟ وماذا ستقول له أو يقول لها ؟؟ليتها لاقت حتفها قبل أن ترى ما يجرى من الأحداث الجسام . إنها تحيا مأساة لعينة لا مثيل لها ، زوجها يحارب أخاها ، ويسجن أباها ، فكيف تبش فى وجه هذا الزوج ، وكيف تعطيه ما تعطى الزوجة رجلها ؟؟ حتى الطلاق لا تستطيعه .

أتتجرع السم وتقضى على هذا الشقاء والعناء النفسى الذى يمزقها ؟؟ إنها ترفض ذلك أيضاً ، لعلها تفتقر إلى مزيد من الشجاعة كى ترتكب هذه الحماقة ، أو لعلها تشعر أن هروبها

على هذه الصورة تاركة أفراد أسرتها فى خضم تلك المآزق الغريبة هو عين الجبن والنذالة ، أو لعل فضولاً من نوع مؤلم يدفعها للحفاظ على حياتها كى ترى خاتمة المأساة المرعبة . .

كانت « مالفن » تعيش وحيدة فى جناحها كالمسجونة ، الخدم يؤدون ما تحتاج إليه فى صمت وارتباك ، والحارس يقف لدى باب الجناح الخاص دون أن يسمح لها حتى بالخروج الى الحديقة ، هذه هى أوامر تفرى ، إنه لا يفعل ذلك حفاظاً عليها ، أو حرصاً على حياتها . . بل يفعل ذلك من أجل نفسه . . فهو يخاف أن ينطلق لسانها بكلمات نقد جارح ، أو هجوم شخصى ، ويخاف أن ترتكب فى حقه حماقة من الحماقات ، وقد تفكر فى الهرب كى تلحق بأهلها ، وهذا لا يليق بسمعته كوصى على العرش، وكقائد عام للقوات المسلحة، إنه أصبح الرجل الأول فى البلاد، ولا يصح أن تلوك الألسنة سيرته أو سيرة زوجته ، ويجب أن يتجنب أى حادث يجعل سيرته أو سيرتها مضغة فى الأفواه . وهكذا بقيت « مالفن» حزينة حائرة، لا يحلو لها نوم . ولا تستطيب طعاماً ، وقد أورثها القلق شحوباً فى وجهها ، وحيرة فى نظراتها ، وصداعاً مزمناً برأسها . . لقد ملّت كل شيء حولها : وجوه الناس ، كلمات التحية التى تسكب فى أذنيها دون معنى ،

الحجرات . . النوافذ . الأسرَّة . . التماثيل الجامدة . . الستائر القائمة . . الفراغ . . الانتظار الممل . . العملاق اللعين الذى يقف حارساً لدى الباب . . العيون الفضولية التى ترمقها خفية، وفيها تعبير غريب لا تدرى أهو الشماتة أم العطف . . لقد كرهت كل ذلك . . وكرهت حياتها ونفسها وأفكارها التى تجترها . . وأحلام نومها البغيضة . . وبدت لها الذكريات القديمة وكأنها جنة وارفة الظلال تنبض بأحلى أمانى الشمر وأناشيده . . كانت هى و إياسو يلعبان كعصفورين بريئين فى رحبة القصر ، ويجريان فى رشاقة . . وجدهما الامبراطور يقدِّم لهما الحلوى والابتسامات . . وكبار الرجال ينحنون لهما فى احترام ، ويقبِّلون أياديهما الصغيرة . . لم يكن هناك مستحيل، ولا رغبة مؤجلة . . كل شيء رهن الإشارة . . لا يلقيان أينما ذهبا إلا الابتسامات والترحيب والحب . . والذكريات زاد المسافرين فى رحلة العناء والأحزان والدموع . . لقد ضاع كل شيء . . ضاع الأمان وهذا أتعس ما يصاب به الإنسان الحر . أجل لقد ضاع الأمان ، فتوشح العالم بالسواد ، وتسربت المنى بالأحزان ، وغرقت دنيا الجمال فى ظلمات من القهر والضياع والخوف . . وأى معنى للحياة بلا أمان؟؟

« آه . . أين أنت الآن يا أمى الحبيبة « شو أرقاش » ؟؟ أين

كلماتك الحنونة ولمستك الحبيبة ، وقلبك الكبير الذى يتسع لما كنت أعانيه من آلام ؟؟ وهل فعل بك تفرى ما فعله بأبى ؟؟ وكيف تعيشين شتاء عمرك الأسيف وأنت بين هذه العواصف المزمجرة، والرعود الداوية »

« وأين أنت يا إياسو الحبيب . . يا أنشودة الأمل على شفاه المساكين والمقهورين ؟»

وأنت يا أبى يا منبع الحنان الصافى ، كيف تغير تاج المشيب على رأسك الوقور فى غبار المعارك الآثمة التى أشعلها تفرى ؟؟ وكيف تلقيت الصدمة القاتلة من إنسان تربطك به أواصر النسب، وتفتح له قلبك ، وزوجته ابنتك فلذة كبدك ؟؟ وكيف تحيا وحيداً فى معتقلك رهين القيد والصمت والظلام، لا تعرف ما يأتى به الغد من مفاجآت؟»

***

جاءت وصيفتها ذات صباح وقالت :

ـ« مولاتى . . »

لم تجب مالفن ، فاستطردت الوصيفة :

ـ« إن مولاى قادم اليوم »

ـ« تفرى ؟ »

ـ « أجل . . »

دقَّ قلبـهـا ، وهبت واقـفـة . . ضـاعت مـعـالم التـفكيـر وخطوطه فى ذهنها المتعب المكدود ، وأخذت عيناها تذرفان بلا وعى ، شعرت برغبة حارقة فى البكاء ، لكنها تماسكت ، كانت دموعها أقوى من طاقتها ، فتدفقت ، ومن ضباب الدموع رأت وصيـفـتـهـا هى الأخـرى تبكى ، فـاندفـعت « مـالفن» نحـوها وضمتها إلى صدرها ، وهى تتمتم :

ـ « معذرة يا أختاه . . إننى أتعذب »

ـ « مولاتى . . أعرف ما تنوءين تحته من آلام . . فليعاونك الله . . »

ـ « لقـد أصـبـحت مـحطمـة . . لم يعـد هناك مـعنى لوجودى . . »

ـ « الجميع هنا يدركون يا مولاتى مأساتك الكبيرة . . »

وعـادت مـالفن إلى مـقـعـدها ، وأخـذت تجفف دمـوعـهـا وتقول :

ـ « إننى تائهـةيا أخـتـاه . . لا أدرى مـاذا أفـعل ؟؟ كـيف أقابله؟؟ ماذا أقول له ؟؟ كيف أعيش معه ؟؟ إن أشباح أسرتى المسكينة يتناحـبـون من حـولى . . أبى فى قـيـوده . . أمى فى

أحزانها ودموعها . . أخى الذى يتواثب على الجبال تحت وهج الشمس ، أو لذعات البرد القارس . . إن استقامة حياتى مع تفرى مستحيلة ، ستكون زيفاً ونفاقاً وتشويهاً . . أنا لا أستطيع أن أضع قناعاً كاذباً فوق وجهى . . إذا استطعت أن أخدع نفسى ـ وهذا مستحيل ـ فلن أستطيع خداع الناس أو خداع تفرى . . الجميع يعرفون الحقيقة . . إذا سرت إلى جوار تفرى أشار الناس إلىَّ قائلين : هذه أخت إياسو وابنة ميكائيل . . وإذا انفردت بتفرى فسيرى فى عينىَّ ما لا أستطيع أن أعبر عنه . . إذا كان الطلاق مستحيلاً ، فلابد من حل آخر . . . »

قالت الوصيفة :

ـ « أى حل ؟ إنها مأساة يا مولاتى . . »

ـ « لنبق أمام الناس زوجين . . ولننفصل فى الحقيقة . . إن مواجهة تفرى وممارسة حياتى العادية معه مستحيلة ، إننى واثقة أن ذلك لا يروق له كما أنه لا يروق لى . . »

وصمتت « مالفن» ، بينما اقتربت منها الوصيفة وجثت عند قدميها وقالت :

ـ « مولاتى . . تستطيعين أن تلعبى دوراً هاماً فى تلك المشكلة الكبرى ، إننى أعتقد ذلك ، لماذا لا تكونين حمامة

سلام بين أسرتك وبين تفرى ؟ إن جلسة واحدة فى حجرة الزوجية مع تفرى تستطيعين خلالها أن تحققى الكثير من الأهداف التى عجزت السياسة والحرب عن تحقيقها . . لست أدرى لماذا لا تجربين هذه المحاولة ، لا من أجلك أنت ، بل من أجل أخيك وأبيك ، ، فإذا نجحت فقد حققت أملاً منشوداً ، وإذا لم تنجحى فلن تخسرى شيئاً ، إننى أعتقد أن هذا هو واجبك . . معذرة يا مولاتى . . أنت بنت الصدق والصراحة . . لكننى خبرت حياة القصور ، وجربت الحياة أكثر ، إننى أكبرك بعشر سنوات . . وأعرف تفرى منذ زمن بعيد . . »

استمعت « مالفن» إلى قول وصيفتها فى اهتمام بالغ ، وأخذت تفكر فى ذلك العرض الذكى ، الذى ليس له دافع سوى المصلحة . لكن على أى أساس يكون حديثها مع تفرى؟؟ وماذا تطلب منه على وجه التحديد ؟؟ أمن المعقول أن تطلب منه أن يعود أبوها إلى « وللو» حاكماً ؟؟ أيمكن أن تقول له يجب أن يعود إياسو إلى العرش ، وأن يبقى تفرى نائباً للامبراطور وقائداً عاماً للجيش ؟؟ هل هذ عرض معقول بعد أن احتدمت الحروب ، وسالت الدماء ، وتآرثت الأحقاد ، وقامت الكنيسة ورجال الأعلام بحملات ضخمة تلوث فيها تاريخ إياسو ومجده وأفكاره . . إن هذه مجرد أوهام فماذا

تعرض على تفرى إذن ؟؟أن يؤمِّن أخاها ، ويطلق سراح أبيها ، وأن يجرى لهما راتباً ، دون أن يكون لهما دخل فى السياسة أو شئون الحكم وهل يقبل إياسو أو أبوها هذا العرض ؟؟ ولهذا قالت مالفن :

ـ « إن الأمر يا أختاه جد معقد ، فما هو العرض الذى يقبله تفرى ، وتقبله أسرتى فى نفس الوقت ؟؟ »

قالت الوصيفة :

« أنا لا أعرف على وجه اليقين ، لكن هذا ما تستطيعين تبينه عندما تناقشين الأمور مع تفرى ،لسوف يفتح الحديث الخاص أمامك الكثير من المداخل ، وسيلقى الأضواء على كل ما يلازم الموقف من مشاكل وتعقيدات . . »

هزت «مالفن » رأسها فى اكتئاب وقالت :

ـ « لن أدخر وسعاً فى بذل أى شيء من أجل أسرتى . . إننى على استعداد لأن أضحى بحياتى من أجل الحفاظ على كرامتها وحمايتها ، لسوف أنحى مشاعرى الخاصة ، ولسوف ألتزم صفة جديدة أنكر فيها ذاتى وحكمى الشخصى . . لسوف أعمل المستحيل من أجلك ياأبى . . من أجلك يا إياسو الطيب الحبيب . . »

قالت الوصيفة :

ـ « هذا عين العقل . . يجب ألا تفكرى على أسس مثالية حالمة ، بل إن تفكيرك يجب أن ينطلق من خضم الواقع المرير الأليم ، إنه لشيء مؤسف حقاً ، لكن لا مناص من الاعتراف بذلك ، هل تتصورين أن يعود تفرى مرة أخرى حاكماً لمقاطعة من المقاطعات ؟ مستحيل . . فكِّرى فى ذلك جيداً . . وأظن أن عرضى للأمور واضح لديك يا مولاتى . . »

قالت « مالفن» :

ـ « أعرف ذلك . . وإنى لك لجد شاكرة . . »

ابتسمت الوصيفة وقالت دون أن تنجلى مسحة الحزن عن وجهها :

ـ«إن زوجك الذى غاب عنك هذه المدة الطويلة يجب أن يراك فى أحسن حال ، يجب أن تغيرى هذه الثياب ، وأن تتعطرى بأطيب العطور . . إن الرائحة الزكية الفعالة تريح قلب الرجل ، وتهدىء من روعه ، وترقق من حاشيته ، فيخفق قلبه فى جو شاعرى جميل . . يتحول إلى وداعة وطاعة واستسلام بين يدى امرأته . . ابتسمى يا مولاتى . . إن أباك ما يزال بخير ، وأخوك لم يزل يحمل السلاح ، والملايين يلهجون باسمه ، وسيظل محبوباً من الناس على الرغم من عدم بقائه امبراطوراً . .

لقد ملك عرش القلوب . . ولا تنس أن تفرى - مهما كان الأمر - زوجك . . وأنه لن يكون قاسياً بأى حال من الأحوال . . إن ما حدث من الحروب ليس أمراً شخصياً ، إنه صراع أفكار وسياسات مختلفة ، تحيط به عديد من الظروف والملابسات . . إن الحكم على ما حدث يحتاج لتبصُّر وفهم أعمق . . إنه شيء آخر غير إياسو وتفرى . . وأنت تدركين ما أرمى إليه . . »

قالت مالفن :

- « على الرغم من أننى لا أقرك على كل التفسيرات التى تبدينها ، إلا أننى أعتز برأيك . وأعتقد أن هناك الكثير مما تقولين يلتزم الإخلاص والصدق وذكاء التعبير . . إننى أعرف ما ترمين إليه . . »

- « أشكرك يا مولاتى . . »

- « بل أنا التى أشكر لك آراءك الطيبة . . وسأظل أحفظ لك هذا الجميل ، لقد أمكننى بالفعل أن أتبين طريقى وسط الضباب واليأس والظلمات التى تحيط بى من كل جانب . . »

قالت الوصيفة وهى تنصرف :

- « فليرعاك الله ، وليكتب لك التوفيق والسعادة . . »



رأته قادماً بسمْته المعهود ، لكأنه الموت يحيط بها من كل جانب ، يمضى منَتفخ الأوداج متعالياً متغطرساً ، كأنه إله صغير . . النفير يدوى ، والطريق مفروشة بالأزاهير ، والطبول تدق مع الأجراس المجنونة ، لمحقق النصر ، وحامى حمى الكنيسة ، وغمغمت بينها وبين نفسها « آه يا مالفن كيف تبتسمين فى وجهه ؟؟ إن ابتسامتك ستولد ميتة ، وقد تتحول إلى صرخة اشمئزاز وحقد . وهل ستهنئينه بالنصر على أخيك وأبيك ، أم تنكرين عليه ذلك النصر اللعين الذى جرَّ عليك الوبال ، وجلب عليه العار ؟؟ أى تفرى يا مَعين الخيانة والغدر إننى ألعنك صباح مساء ، لمَ لَمْ تمت كما ماتَ إخوتك العشرة من قبل ؟؟ لكنها إرادة الله . . . »

قالت وهى تبتسم ابتسامة شاحبة :

ـ « إننى أحمد الله على سلامتك »

رمقها فى شك ، ثم استدرك قائلاً :

ـ « هل أنت بخير ؟؟ »

ـ « أشكرك كنت قلقة من أجلك »

كشف القناع عن وجهه دون حياء وقال وهو يحاول الانشغال بشيء تافه :

ـ« أعرف أن الأحداث الأخيرة قد تركت فى نفسك أثراً لا يُمحى . . هذا أمر طبيعى »

ـ « إنك زوجى يا تفـرى ، وإياسـو أخى . . إن الصـراع بينكما صراع أخوة مهما كان الأمر ، ولن يبلغ مرحلة التصفية الخشنة . . . »

قال وهو يواجهها فى صراحة :

ـ « بل صراع مبادئ يا « مالفن » إننى رجل مسيحى أغار على دينى وعقيدتى ، وأؤمن أن الحبشة بلد المسيحية ، تماماً كما تقولين عن مكة بلد الإسلام . إننى أرفض وأعارض بشدة أن تتخذ الحبشة صفة غير الصفة المسيحية ، كما أرفض دون تردد أن يكون امبراطور الحبشة مسلماً ، تلك هى القضية ، إننى أعبر فيما فعلته عما يجيش فى صدور الحبشيين المسيحيين وما يريده رجال الكنيسة ، وهم السلطة الروحية . . أعنى السلطة العليا فى البلاد ، إننى مجرد جندى مؤمن أدافع عن هذه المبادئ ، وليس لى أى هدف شخصى ، وما أقدمت عليه بالنسبة لإياسو كان من الضرورى أن نقوم بمثله فى مواجهة أى منحرف ، وبأسلوب أفظع . . وأنا فى الحقيقة لم أكن أنوى أن أفعل سوى

تسليم السلطة بهدوء لمن يؤمن بهذه المبادئ ، لكن أباك ساق الجنود ، وأراد أن يشعل حرباً دينية . . معذرة إننى لا أقر ميكائيل على ما فعله ، كان مسلماً بينه وبين نفسه ، ومسيحياً فى الظاهر ، إن هذا الانفصام والالتواء لم تكن لتطيقهما الحبشة . . »

قالت مالفن وهى تحاول أن تخفف من حدة انفعاله :

ـ « إن إياسو أخوك . . »

ـ « هذا هو شعورى ، ولقد حاولت التفاوض معه ، لكنه أبى ، وأصر على مواصلة الحرب على الرغم من أنه يدرك الأمور جيداً ، ويعلم علم اليقين أنه يخوض معركة يائسة . . لو كان يعتصم بمنطق العقل ، ومتطلبات الواقع ، لألقى السلاح فوراً . . إنه يتحرك بدافع شخصى ، يبدو أن الحقد يأكل قلبه ، هل تضايق لأن تفرى انتصر وانتصرت مبادئه ؟ أنا لا أتباهى بما حققته ، ولكنى أقرر واقعاً . »

فاقتربت مالفن منه وقالت :

ـ « أى تفرى . لماذا لا تحاول من جديد ؟؟ إن إياسو طيب القلب »

ـ « وما الحل الذى تقترحينه ؟؟ »

ـ « ماذا ترى أنت ؟؟»

ـ « إن الأحداث قد أجابت على هذا السؤال ، لقد حلت المشكلة بالنسبة لى وللحبشة ، لكن إياسو يصر على تجميد الموقف ماذا يريد بالضبط ؟؟ هل يتصور أنه فى الإمكان أن يعود امبراطوراً ؟؟ هذا هراء . . إن ما أراه هو أن يلقى السلاح ، وأن يعلن تخليه عن إسلامه ، ثم يقدم للكنيسة طائعاً تائباً . . ولتفعل الكنيسة بعد ذلك ما تشاء . . »

حاولت مالفن أن تفهمه أن هذا الموقف المتشدد لا يمكن أن يحل الوضع المعقد ، إن إياسو يفضل أن يضحى بحياته على أن يقدم نفسه ذليلاً مهزوماً للكنيسة ، ثم إن مسألة العقيدة الدينية لا يصح أن تكون محل نقاش ، إنها مسألة شخصية ، وإياسو حين أسلم أسلم بعد تفكير واقتناع ، ولا يمكن أن يتراجع لمجرد ما حاق به من هزيمة ، كانت « مالفن » ترى من حيث المبدأ أن يحاول تفرى إعادة أبيها إلى منصبه فى مقاطعة « وللو » فإذا ما حدث ذلك ، فستهدأ الخواطر ، ويقدم تفرى بذلك الدليل على حسن نواياه ورغبته فى تصفية الأمر ، أما بالنسبة لإياسو فإن الأمر أشد تعقيداً ، ألا يمكن أن يكون هناك استفتاء للشعب يختار فيه امبراطوره بمحض إرادته ؟؟

وأمام المقترحات التى قدَّمتها مالفن . قال تفرى :

ـ « إننى لا يمكننى أن أفعل ذلك بالنسبة لأبيك . . من أنا؟؟مجرد قائد لمعركة يتلقى أوامره من جهات عليا . إن هناك

مؤسسات دينية وسياسية هى التى ترسم خطوط السياسة الداخلية والخارجية . . ثم إن أباك ومواقفه المعادية ، وتاريخه المرتبك لا يساعدنى على أن أقدِّم مثل هذا الاقتراح ، بل على العكس لسوف يلومنى الجميع . . سيقولون إن تفرى يحاول أن يهادن أقاربه وأصهاره ، لقد عنفونى لأنى لم . . ماذا أقول ؟؟ كانوا يريدون تنفيذ حكم الإعدام فى صهرى العزيز ميكائيل بعد القبض عليه . . لكن لم أستطع أن أقبل هذا . . إنه مستحيل ، لقد رفضت ذلك بكل قوة . . وقدَّمت رقبتى فداءً له ، ومن ثم اكتفوا باعتقاله . . »

قالت مالفن محاولة أن تثير حميته ، وتغذى غروره :

ـ « لكنك بالنسبة لهم كل شيء يا تفرى . أنت الذى حققت النصر بسرعة مذهلة . وأنت المخلص الأكبر للكنيسة والدولة ، ومنصبك الحالى يجعلك تمثل أكبر ثقل فى الدولة . . »

قال تفرى :

ـ« أي عزيزتى مالفن . لكَمْ كان يعز علىّ أن أخوض حرباً ضد شقيق زوجتى وأبيها . . إنها مهمة صعبة مقيتة إلى نفسى لكننى لو تقاعست لقام بها غيرى ، ولذبحنا جميعاً أنا وأنت وأسرتك كلها ، كان من الحكمة واللباقة أن أؤدى ما طُلب منى ، ومن ثم استطعت أن أحمى روحى وأرواحكم . لسوف يذكر

التاريخ أننى لم أكن خائناً أو متآمراً . . لقد أديت واجبى بما يرضى الله والضمير والأمة . . »

نظرت إليه فى دهشة ، هذا الشيطان يحاول أن يبدو فى صورة الملاك المخلص ، أتراه نسى الدماء التى أراقها ؟؟ وهل نسى الثقة التى أوليناه إياها ؟؟ أينكر الوسائل الخبيثة التى توسل بها للقضاء على خصومه فى الرأى والعقيدة ؟؟ إن رائحة القرى التى أحرقت ، والجثث التى تراصت فى العراء ، وآلاف المكائد البشعة . . . إن رائحة هذا كله تفوح من أردائه . . أين مثل هذا الشيطان من إياسو المؤمن الطيب الذى لم يفكر فى الانتقام ممن حاول قتله ؟؟ لا . . لا . . لا يصح أن تُعقد مقارنة بين الأرض والسماء ، والليل والنهار ، والبساتين المورقة المزهرة والصحراء الجرداء . . ، إن مثل هذه المتناقضات لا تحتاج إلى شرح أو تبيان . . سكان الحبشة جميعاً بما فيهم المسيحيون والوثنيون والمسلمون يعرفون من إياسو ومن تفرى ؟؟ المتبجح الملعون تفرى . . . يحاول جاهداً أن يكسو فظائعه ووحشيته بلباس المبادئ والشرعية ، ويلتمس لها المعاذير . .

وعاد تفرى يقول :

ـ « إن اختيار خالتك « زوديتو » امبراطورة قد حلّ الإشكال ، وكان من الواجب على إياسو وعلى أبيك أن يعلنا تأييدهما لهذه الخطوة الموفقة ، حفاظاً على وحدة الأمة ،

وحفاظاً على كيان أسرتهما . . إن تصرفاتهما التى جانبها التوفيق ستؤدى إلى المزيد من النكبات والدماء والقلاقل . . »

قالت « مالفن» :

ـ « وإذا استطعت إقناع إياسو بوقف الغارات ؟؟ »

ـ « سيكون هذا عملاً رائعاً منك »

ـ « والنتيجة العملية لهذا ؟؟ »

ـ « أن يحيا فى قصر خاص ، ونقيم راتباً يكفيه ، ونحيطه بما يريد من خدم وحرس ، على شرط أن يعلن تأييده للوضع القائم ، وألا يطمع فى أى منصب ، وأن يعلن أبوك تأييده كذلك ، مع عدم التفكير فى العودة إلى « وللو» مرة ثانية . . يجب أن يبتعدا عن العمل السياسى كلية . . »

كانت « مالفن» تشك كثيراً فى قبول أخيها لهذا العرض فهى تعلم الكثير عن أخلاقه وتفكيره ومبادئه ، إنه يفضل أن يراق دمه على سفوح التلال ، وتنهش جسده الوحوش على أن يقر بوضع شاءه ظالم لا يرتاح إليه ضميره ، ولا يؤمن به عقله ، لكن لماذا لا تحاول ؟ إنها لن تخسر شيئاً»

ـ « سأحاول أن أفعل ذلك يا تفرى ؟»

وأعطت « مالفن » ظهرها لتفرى ، وشبكت يديها فوق

صدرها وقالت :

ـ « إننى عاتبة عليك يا تفرى »

ـ « لماذا ؟؟ »

ـ « لقد وضعتنى فى موقف حرج ، إذ كيف تقيم على بابى سجاناً يمنعنى من الخروج ؟؟ أنسيت أننى زوجتك ، وأن هذا قد يثير التساؤل والعجب فى نفوس الناس ؟؟ ألا تثق فىّ يا تفرى؟؟»

وتذكَّر تفرى الرسالة التى كتبتها إلى أخيها ، وكيف كان بدنه يقشعر لقسوة الكلمات التى كتبتها ، كان واضحاً أنها تقف إلى جوار أخيها ، وفى الوقت نفسه تعارض زوجها بشدة ، وتأخذ عليه مسلكه الشائن الحقير ، لكنه لا يستطيع الآن أن يوضح لها ذلك كله ، ومنَ ثمَّ قال :

ـ « عزيزتى « مالفن» ، كنت مضطراً إلى ذلك ، لقد كان إجراءً مؤقتاً ، والأحداث أكبر منى ومنك ، ولقد أسلفت لك أن هناك سلطة عليا تحكم تصرفاتى ، ومن الحكمة ألا أُعارض هذه السلطة ، إننى أعتذر إليك عما حدث ، لكنى كنت مضطراً إلى ذلك . . وهأنذا قد عدت إليك بعد أن أوشكت الأمور على الاستتباب ، فلتنعمى بحريتك كما تشائين ، ولسوف نرحل إلى العاصمة « أديس أبابا » ، إن زوجك الآن

وَصى على العرش وقائد أعلى للقوات المسلحة ، وسترين فى حياتنا الجديدة ما يملأ فؤادك بالرضا و السعادة فلا تقلقى على أبيك وأخيك فلسوف أحفظهما من كل سوء» .

قالت وقد نزلت كلماته برداً وسلاماً على قلبها الذى يتعذب :

ـ « أتعدنى بذلك يا تفرى ؟؟ »

ـ « أقسم بشرفى على ذلك . . »

استدارت إليه باسمة وقالت :

ـ « كم أنا سعيدة !! »

ساورها قليل من الشك فى كلماته . . لكنها رأت من المعقول أن يتصرف تفرى مثل هذا التصرف . إنه ليس وحشاً فى غابة ، إنه إنسان على أية حال ، وصراع السلطة لا يجعله يتشفى فى أصهاره برغم كل ما حدث . كانت راغبة فى تصديقه ، وخاصة أنها لا تستطيع أن تتصور حدوث شيء خلاف ذلك . .

***

منذ أن انتقلت« مالفن »مع زوجها إلى العاصمة ، وهى لا تكف عن تهذيب حاشية تفرى ، وترقيق عاطفته بالنسبة لأهلها .

حاولت فى استماتة أن تجعله يفرج عن أبيها السجين ، لكنه أكد لها أن ذلك سيحدث عندما يلقى « إياسو » السلاح ، وأكد لها أن أباها يعيش فى بحبوحة من العيش ، وأنه يعامل أحسن معاملة ، وأخذت رسائل « مالفن» تترى على إياسو ، شارحة له وجهة نظرها ووجهة نظر تفرى ، وكانت إجابات إياسو لا تخرج عن معنى واحد وهو أنه على حق ، وأنه لن يفرط قيد أنملة فى هذا الحق ، مهما كلفه من تضحيات ، ولسوف يواصل نضاله حتى آخر رمق ، ولو بقى فى الميدان وحده . .

وكان تفرى لا يفتأ يعتب عليها ويقول لها :

ها أنت ترين تردده وإصــــراره على المضى فى خطه العدائى . . إنه يكرهنى يامالفن ، هو لا يهمه أمر البلاد ، فلنغرق فى طوفان من الدماء ولا يهمه أمر المسلمين الذين يحبهم ويحبونه ، إننى أعترف أن حملاتنا التأديبية لا تكف عن التنكيل بهؤلاء المسلمين ، بعد أن ملأ أخوك رؤوسهم بالترهات والأوهام والتمرد ، إننا ننكل بهم بسببه ، فهم يساعدونه ، وهم يرددون أفكاره ، ويشيعون الكثير عن انتصاراته الوهمية ، ويجعلون منه أسطورة نضال رائعة يتغنون بها ، إن الدولة لا يمكن أن تسكت على هذا الانحراف . . قلت لك ألف مرة إن الحبشة مسيحية ، ولن تكون غير ذلك حتى ولو بلغ تعداد المسلمين تسعة وتسعين فى المائة . . لكننى لم أزل أنتظر لعل

إياسو يفيق من غيه ، ويثوب إلى رشده . . »

قالت مالفن :

ـ « إننى أريد أن أفعل شيئاً أخيراً يا تفرى »

قال تفرى : « ماذا » ؟

قالت : « أن ألتقى بإياسو . . »

ـ «هذه فكرة صائبة . . لكن كيف ؟؟ »

ـ « سأراسله حول هذا الموضوع ، إنه يسره أن يلقانى . . »

ـ « لقد أصبح إياسو يشك فى أقرب الناس إليه . . »

ـ « لكنى أخته . . إننى حريصة على أن يسود بينكما الوئام ، وأن تحيا أسرتنا حياة طيبة تليق بكرامتها وماضيها ، وأريد فى نفس الوقت أن أنفى الحرج الذى يلاحقك ، فإن صراعك مع صهرك مسألة تلفت النظر . . »

ـ « وما ذنبى أنا ؟؟ »

حدجته بنظرة خاطفة ذات معنى ، فهى تعلم أنه سبب البلاء كله وأن أطماعه الخبيثة ، هى التى ملأت الأرض بالدماء والخطايا ، لكنها لم تعد بقادرة على مواجهته بذلك ، لقد أصبحت هى وأخوها فى الجانب الأضعف ، ومن ثَمَّ لابد أن تغض الطرف عما يهرف به من أكاذيب . وما يومئ به من

ادعاءات . . ليقل ما شاء فإن الحقيقة واضحة يعرفها الجميع ، وهو نفسه ـ برغم مكابرته ـ يعرفها جيداً . .

وظلت « مالفن » فترة طويلة تبذل الجهود تلو الجهود ، وتبعث بالرسائل تلو الرسائل ، ولم تستطع مع ذلك أن تفعل شيئاً يتقدم بها نحو حل المشكلة ، ولم يكن تفرى نائماً ، كان يحاول ـ كالعهد به ـ أن يستغل الفرص التى تسنح ويتابع رسل « مالفن »، ويجمع المعلومات عن إياسو وعن خط تنقلاته وصلاته ببعض القبائل والمدن ، كان يرسل إليه عيونه وجَواسيسه كى ينضموا إليه ، ويظهروا له ولاءهم وانضمامهم إليه ، واستطاع تفرى أخيراً أن يحاصر إياسو فى إحدى المناطق النائية ، على أثر خديعة ماكرة خبيثة ، وبُعد معركة قصيرة ، وجد إياسو نفسه محاصراً برجال « تفرى » . وغدارته خاوية من الطلقات ، وعشرات الأيدى تقبض عليه ، وتضع فى يده الأغلال ، وظهر تفرى من بعيد ، وأخذ يقترب من إياسو وهو يبتسم ابتسامته الماكرة الصفراء ، وقال تفرى ونبرات صوته تنضج بالشماته :

ـ «الآن انتهت المعركة . . »

ـ « لم تنته بعد أيها الخبيث . . »

ـ « إنك دائماً تسيء إلىّ . . »

ـ « لتعلم يا تفرى أن المعركة الكبرى لا ترتبط بك وبى وحدنا . . إنها صراع أزلى بين الحق والباطل . . معركة مبادئ يا تفرى ، إنك لم تحقق نصراً نهائياً بعد ، لقد استطعت أن تسرق النصر الظاهرى ، وتستولى على الأرض ، واستطعت يا تفرى أن تكتم أصوات الأحرار ، وأن تنشر الإرهاب فى كل مكان ، واستطعت أن تأخذنى أسيراً ، لكن الشعب فى صمته أعلى هديراً منى ومنك ، والشعب برغم صمته لم يزل صامداً مترقباً ينتظر اللحظة الحاسمة ، لقد أعلن الشعب رأيه الحقيقى فيك وفىّ ، وأنت تعرف هذا الرأى ، ولكنك تتجاهله ، إنك يا تفرى تتمسح فى الدين ، وتجعل منه ستاراً لأطماعك ، أنت تعلم ذلك . . لكن الدين براء منك ومن أفعالك ، الدين يا تفرى ـ أى دين ـ يجعل الأمر شورى ، ويعترف بإرادة البشر ويقدس حرياتهم وآراءهم . . والدين يا تفرى ليس فيه تأكيد للخداع والمكر والكذب والإرهاب ، ولا يبيح إراقة الدماء من أجل أغراض دنيوية تافهة . . والدين يا تفرى لا يقرك على تحالفك مع الاستعمار عدو الله وعدو الشعوب . . والدين يا تفرى لا يقرك على إذلال البشر ، وإدخالهم فى عقيدتك على الرغم منهم . . »

قال تفرى مقهقهاً :

ـ « دائماً تتحدث عن الله فى أوقات الهزيمة والضياع . . »

ـ « كنت أتحدث دائماً يا تفرى لأنى أؤمن به عن يقين »

ـ « إنك تجيد الخطب والوعظيات لا غير . . »

ـ « وأجيد يا تفرى منازلة الظالمين . . »

قال تفرى فى سخرية :

ـ « هذا واضح جداً . إنك لم تزل تتحدث عن النصر ، على الرغم من الأغلال والسلاسل التى تشل حركتك . . كان رأيى فيك دائماً أنك مثالى حالم ، لا تصلح للحكم . . الدراويش لا يصلحون للحكم يا إياسو أيها الأخ المبجل . . »

كظم إياسو غيظه . . وسدد إلى تفرى نظرات نارية ، وقال :

ـ« ليس لديك رصيد من القوة الروحية تحمى به أمتك ، إن بلادنا لن تثبت أمام أية قوة عادية ، فأنت تربى جيلاً من العبيد ، والعبيد لا يحققون نصراً . . »

ـ « لم تزل تحلم يا إياسو ، هؤلاء العبيد هم الذين حرروا الحبشة من انحرافاتك وتسلطك . . »

ـ « قل ما شئت ، فستثبت لك الأيام ما أقول . . لقد شوهت أنت ورفاقك مبادئ الدين ، ومفاهيم النصر ، وأفسدت معنى الحرية والإخاء والوطنية . . قد تكون حققت نصراً سريعاً

وقد أكون أنا لاقيت الهزيمة، لكن الذى يؤلمنى هو محاولة سحق المعانى النبيلة فى حياة الإنسان الحر الشريف ، والمعركة لم تنته بعد يا تفرى . . »

هز تفرى رأسه ، وقال :

ـ« أنا لا أنظر إلى بعيد ، ولا أحلم بالمثاليات ، وستذهب أنت الآن إلى السجن ، عندئذ ينتهى كل شىء . . حسناً لتذكر جيداً أننى لن أقتلك . . فأنا لا أحب سفك الدماء ، ألم تزل مُصرِّاً على اتهامى بالقسوة ؟؟ . . »

ثم التفت إلى الحراس وصاح فى صرامة :

ـ« خذوه إلى السجن . . يجب أن تحيطوه بالحراسة المشددة . . »

ولم ينس تفرى ، أن يبرق فوراً إلى الكنيسة وعلى رأسها الأب ميتاوس ، ويخبرهم بنجاح خطته ، وانتهاء مقاومة إياسو إلى الأبد ، والقضاء على الرمز الحى الذى كان يؤرق الطامعين . . القضاء على إياسو .

***

ودقت الطبول والأجراس مستقبلة البطل الظافر تفرى ، وأقيمت الزينات والأعلام ، وترنم الرهبان والقساوسة بصلوات الشكر لله ، بينما جلست « مالفن» فى قصرها حزينة باكية :

ـ « ألا ترحمنى يا تفرى ؟؟ »

ـ « لقد استطعت أن أنقذه من حبل المشنقة »

ـ« السجن أفظع من الموت يا تفرى . . »

قال تفرى ساخراً :

ـ « سيجد فى السجن فرصة طيبة للتفكير والتأمل وعبادة الله . . السجن خلوة الصالحين والأطهار يا مالفن » .

ـ « لا يصح أن تسجن امبراطوراً لم يسيء إليك شخصياً ، فضلاً عن أنه صهرك . . »

قهقه تفرى ساخراً ، ثم كشر عن أنيابه وصاح :

ـ « كفى عن هذا الهراء . . إننى أمقته . . وأمقتك أنت أيضاً . . »

شحب وجهها . . وهتفت فى رعب :

ـ «ماذا ؟؟ أنت لست فى وعيك يا تفرى » .

ـ « إننى أعلم جيداً أنك تكرهيننى ، وتتمنين زوالى ، وكذلك كان أبوك وأخوك . . إننى لن أزول . . أتفهمين ؟؟ لن أزول . . أنا باق هنا لأحكم وأنتصر ، وأقضى على جميع أعداء المسيحية . . إننى أتكلم بصراحة ، وأفصح عن نواياى بطريقة جديدة عليك . . لقد تعودت منى أن أعمل فى هدوء ،

وأن أعبر عن نواياى بطريقة مخالفة . . والآن لقد انتهت المعركة، ولم يعد هناك من سبب لإخفاء نواياى . . لن يخرج أبوك ولا أخوك من السجن . . وأنت !! أنت أيتها الملعونة . . لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن . . فلتعيشى فى هذا القصر كأحقر خادمة ، حتى يقضى الله أمراً . . إننى أكره أن أسمع اسم إياسو أو ميكائيل . . لا ترددى هذه الأسماء أمامى مرة ثانية وإلا . . وإلا قتلتهما . . إن كلمة واحدة كفيلة بوضع حد لكل هذه المهازل . . »

شهقت مالفن باكية ، وجثت لدى قدميه ، وقالت ضارعة :

ـ « افعل بى ما شئت يا تفرى . . لكن ارحمهما . . إننى أعرف جيداً مدى نفوذك . . أنت قادر على فعل أى شيء فى هذه البلاد . . »

ركلها بقدمه ومضى مغبر السحنة ، لم يرق لدموعها آهاتها وتوسلاتها . .

ورمقته وهو يتوارى عن الأنظار :

ـ أيها المقيت الملعون . . لم يكن يناسبك سوى أن تحكم غابة، أنت لا تحب الله ولا الشعب ولا الكنيسة . . بل تحب نفسك . . لقد حاولت جاهدة أن أكبح جماح نفسى ، وأن أضغط على عواطفى ، وأبتسم لك ، وأضرع إليك . لعلى

أستطيع أن أخفف من أحقادك وقسوتك ، ولعلى أنجح فى إنقاذ أسرتى من براثن غدرك . . لكنك كالصخرة التى لا تنبض بقطرة واحدة . . لتذهب ملعوناً فى الأرض وفى السماء . . »

***

ومات ميكائيل مسموماً فى سجنه .

وماتت مالفن مسمومة فى قصرها . .

وصدرت بيانات مقتضبة عن كل منهما . .

وتهامس الناس ، تحت أسقف المنازل ، وخلف ستائر الليل الحالكة السواد ، ولم يستطع الهمس أن يتصاعد أو يعلو . . إن «تفرى» الشيطان لا يرحم . . . ولم يبق إلا إياسو خلف الأسوار ، يحيا بين آمال الماضى وأحلام المستقبل الغامض، وآلام الحاضر الحزينة . . إنه يحيا بين كلمات الله ، مستغرقاً فى عبادته . . وحيداً صابراً . . . لكن اسمه على كل لسان . . لم يزل الأغنية الشجية التى ترف على شفاه المعذبين والمضطهدين . . .



وظل إياسو فى سجنه سنوات طويلة ، لقد استشرى نفوذ تفرى فى حماية أصدقائه الإنجليز والفرنسيين ، وفى حماية الكنيسة ورجال الدين المتعصبين ، كانت« زوديتو» خالة إياسو، وزوجة الرأس « غوغسا » - أحد حكام المقاطعات - كانت زوديتو هى الامبراطورة ولا يعرف الناس عنها فى الحبشة شيئاً يذكر ، يرون صورتها ، ويقرأون بعض المراسيم بتوقيعها ، لكنهم على يقين أنها لا شيء على الإطلاق ، إن ولى العهد وقائد الحبشة تفرى هو السلطة الفعلية التى تعبر عن إرادة المستعمرين ورجال الدين المتعصبين، واستغل تفرى فرصة الثقة المتاحة له ، ورضاء الأجانب والكنيسةعنه ، فى القضاء على مناوئيه ، والتمكين لسلطانه بجمع الأتباع ، وإعطاء المناصب الحساسة لمن يثق فيهم ، وإغداق المنح والهبات على من يشاء من أنصاره ومؤيديه . . .

لقد خفت صوت إياسو خلف أسوار السجن العتيد عام **1921**حتى **1930** ، واستطاع تفرى أن يقيم حول منفى إياسو ستاراً كثيفاً من الصمت والغموض والرعب ، وظن أن الامبراطور السجين قد انتهى ، وأنه لا داعى لقتله ، بل إن ذلك

السجن الرهيب ، أبشع من الموت نفسه . . لكن تفرى وقوته وسلطانه وإرهابه لم يكن ذلك كله قادراً على الوقوف موقف التحدى فى مواجهة القدر الغلاب . .

كانت « زودتيو» هى الامبراطورة اسماً لا عملاً . . وكانت تدرك ذلك ، وتشعر بمرارة قاتلة ، لكن ماذا تفعل؟؟ لشد ما تكره هذا الملعون تفرى ، إنه هو السبب فى جلوسها على كرسى العرش ، لكنه أخذ منها بالشمال ما أعطاه لها باليمين ، إنها تأتمر بأمره وكأنها وصيفة من وصيفات القصر الامبراطورى وليست صاحبة السلطة العليا الحقيقية فى البلاد ، وكان زوج الامبراطورة « الرأس غوغسا » يكاد ينفجر غيظاً ، إنه يرى زوجته مجرد ألعوبة فى يد تفرى ، ليس فى مقدورها أن تحسم أمراً . أو تَبتّ فى مشكلة من المشاكل ، وظل غوغسا يكتم غيظه ويدارى أساه لسنين طويلة ، انتظاراً للحظة الحاسمة التى يستطيع فيها أن يرد لزوجته الامبراطورة سلطتها الشرعية ، وذات مساء قال غوغسا لزوجته زوديتو :

- « إلى متى نظل نمثل هذه المهزلة التى يخرجها تفرى ؟؟ لقد أصبحنا أضحوكة للشعب ، نحن لا نملك من السلطة إلا اسمها ، بل إن سلطاتك الرمزية كامبراطورة مهددة هى الأخرى بالضياع ، إننى لا آمن مكر تفرى » .

قالت زوديتو :

ـ « إننى أتعذب مثلك ولا أعرف أين السبيل ، إننى أعيش كما ترى فيما يشبه السجن ، نحن لا نختلف يا غوغسا عن إياسو المسكين المظلوم ، إننى أشعر الآن بأنى خنت إياسو حينما وافقت على تولى منصب الامبراطورة ، فلو أنى رفضت لوضعت الملعون تفرى فى مأزق ، ولربما عاد إياسو عند ذاك إلى منصبه الشرعى فى البلاد . . »

قال غوغسا :

ـ « يجب أن نبحث عن حل »

ـ « إننى متفقة معك ، لكن كيف ؟؟ »

ـ « ألم تتدارسى الأمر مع رجال الكنيسة »

ـ « إننى حائرة يا غوغسا ، تاره أراهم يؤيدوننى ويسخطون على تفرى ، ويبدون التململ من تسلطه وتحكمه ، وتارة أخرى أشعر أنهم قد عقدوا معه حلفاً غير مقدس . . . لا فائدة ترجى من وراء الكنيسة عندنا . إنها مؤسسة ضالة مضلة ، يعميها التعصب ، وتحجب الملذات عنها الرؤية . . . نحن نعيش مأساة بشعة ، لا نرى خلالها بصيصاً من النور . . . »

قال غوغسا :

« لمَ لا نحاول كسب تأييد الإنجليز والفرنسيين ؟ »

ـ « لن تكون عروضنا يا عزيزى أشد إغراءً لهم ، لقد قدَّم لهم تفرى كل ما يريدونه من بلادنا ، وأثبت لهم إخلاصه ووفاءه ، إن له مكانة كبرى بينهم ، ونحن فى الواقع لا نستطيع منافسته . . »

وأخذ غوغسا يفكر ثم قال :

ـ « والجيش يا زوديتو ؟؟»

ـ « لا أمل فيه »

ـ « ولماذا ؟؟ »

ـ «إن كبار ضباطه من أصدقاء تفرى ، وقد أغدق تفرى عليهم المنح والرُتَب ، بالإضافة إلى أنه ملأ الجيش بالجواسيس والعيون . . وبث فيه الرعب . . . لقد اتبع كل سبيل للسيطرة على الجيش . . إن تفرى لا يفكر إلا فى التمكين لنفسه بشتى الوسائل ولا يضيع لحظة واحدة فى غير ذلك . . . إنه يضحى بأى شيء لكى يثبِّت دعائم سلطانه ، هل نسيت أنه قتل زوجته؟؟»

ـ « ماذا نفعل يا زوديتو ؟؟ يجب أن نتحرك . مستحيل أن نرضى بهذا الهوان . . إن الشعب يسخر منك . . أتفهمين؟؟»

ـ « يؤسفنى أن أقرر أنه ليس أمامى بصيص من نور . . »

سدد إليها غوغسا نظرات حادة وقال :

ـ « بل أمامنا باب لم نطرقه بعد »

ـ « ماذا ؟؟ »

اعتدل غوغسا فى جلسته ، وتلفت يمنة ويسرة فى تحفظ ، على الرغم من أنه يجلس مع زوجته وحدهما فى غرفة مغلقة ، ثم أخذ يشرح لها خطته . . !

إن الشعب لم يزل يحب إياسو لدرجة العبادة ، فى الوقت الذى لا يحظى تفرى بينهم بغير الحقد والمقت. وشرح لها كيف أن قوى الشعب ذخيرة لا تنفد ولا يغلبها غالب . لأنها طاقة بلا حدود ، لا نهاية لها ، ولاشك أن انقلاب الشعب ضد تفرى قد يغرى الجيش بمعاداته . وقد يجعل الكنيسة تعلن غضبها عليه والأجانب دائماً يقفون إلى جوار القوة الحقيقية إذا ما سقط عملاؤهم ، ويحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، والحفاظ على البقية الباقية من مصالحهم ، فإذا رأى الأجانب انهيار تفرى ، أجهزوا عليه وناصروا أعداءه ، إنهم ينظرون إلى بعيد . .

وقال غوغسا :

ـ « أى عزيزتى الامبراطورة المسكينة ، إن لدىَّ جيشاً لا بأس به . وسأعلن على الملأ خلع تفرى، وأطالب بإعادة إياسو صاحب الحق الشرعى إلى كرسى الحكم ، وإننى واثق أن

الملايين من أبناء الشعب سينضمون إلينا ، وستندلع ثورة كبرى تحطم تفرى وأذنابه ، وتعيد الأمور إلى نصابها . . »

قالت زوديتو :

ـ « إنها مغامرة خطرة يا غوغسا . . »

ـ « لن نصل إلى غاياتنا إلا بارتكاب المخاطر ، ولو لم يفعل تفرى ذلك من قبل لما استطاع زحزحة إياسو . . وإن الخوف الكامن فى قلوبنا سوف يؤدى إلى الضياع القاتل . .

ماذا ننتظر يا زوجتى ؟ هل تأملين أن يثوب تفرى إلى الحق ، ويهبك سلطاتك الحقيقية وأنت هكذا لا تملكين شيئاً من السلطة الفعلية ، إن تفرى لا يفهم الأصول أو الدساتير ، المنطق الوحيد الذى يفهمه تفرى هو منطق القوة . . القوة وحدها ، بالقوة حقق ما يريد ، وبالقوة هزم المثل العليا ، ورفع الحقارة والضعة والنفعية إلى كرسى الحكم . . فالقوة وحدها هى اللغة الَتى يفهمها تفرى . . »

ـ « إننى أشعر بالخوف يا غوغسا »

ـ « زوديتو . . إننى رجل . . أكثر رجولة من تفرى . . الخوف عار يا زوديتو . . الموت أهون منه عندى . . »

وصمت بُرهة ثم عاد يقول :

ـ « إذا استطعنا أن نقهر الخوف فى نفوسنا فلسوف نقهر تفرى ومفاسده لقد التزمنا الحكمة والتريث سنين طويلة حتى يرعوى تفرى ، لكن لا فائدة . . إن الحل الآن يفرض نفسه . . السيف هو الذى يحسم الأمور . . »

وأخذ يفكر ، ثم استطرد :

ـ « وقوتنا لن تقوم على أسس غاشمة عمياء ، إنها تستند إلى الحق والشرعية ونحن ندعو إلى الحرية والعدالة والأخوة ، وترك التعصب والظلم . . . إنها نفس المبادئ التى نادى بها إياسو ، واستجاب لها الشعب . . ومن البديهى أن نحاول استمالة الكنيسة والأجانب ، إن أى تأييد منهما سيفيدنا . . لكن يجب ألا نكشف لهم عن خطتنا ، وألا نفاتحهم بالأمر إلا أثناء نشوب المعركة . . إن النصر المبدئى الذى سوف نحققه يسهل مهمتنا . . »

لم تدر « زوديتو » كيف تجيب ، إنها ناقمة على وضعها الزائف المضحك ، وناقمة على استبداد تفرى وأطماعه الخفية وهى تؤمن أن القوة وحدها هى القادرة على حسم الأمور ، وتحطيم تفرى ، لكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير فى نتيجة المعركة إذا ما حاقت الهزيمة بغوغسا . . . يجب أن تفكر فى احتمالات الهزيمة والنصر وإلا كانت حالمة ، عارية من الخبرة والتجربة والمنطق . .

وأخيراً قالت زوديتو :

ـ « أيها العزيز غوغسا . . إننى أؤمن بضرورة الحركة والتضحية ، لكن هذا لا يمنع أن يعبث الخوف بقلبى . . إننى امرأة وزوجة . . وتفرى ملعون خبيث لا يرحم . . ومع ذلك فلتسر على بركة الله . . »

انتشرت دعوة « غوغسا » فى كل مكان . وزحف بقواته المحدودة فى البداية ، وسرعان ما انضم إليها عشرات الألوف ، أتوا من كل مكان ، حاملين السلاح ، عاقدين العزم على النصر أو الموت ، هاتفين باسم « إياسو » . . . لقد عاد اسم إياسو ليتردد فى كل مكان . . وعلى كل لسان . . إياسو الطيب الصابر ، الذى يقضى أيامه ولياليه وراء القضبان صابراً عابداً لله . . لقد عادت أغنيات الأمل على الشفاه مرة ثانية . . إياسو . . إياسو . . يهتف الفلاحون القادمون من القرى والمزارع ، والرجال الذين يخترقون الغابات والبحيرات ، والمواطنون المنحدرون من الجبال والتلال . . إياسو . . . إياسو . . وأحيط بتفرى ، إن غوغسا يتقدم وينتصر ، والكنيسة يمزقها الرعب والهلع ، والعاصمة « أديس أبابا » تنام وهى تغلى وترتعد . . الانتظار القاتل يلف الجميع . . وغوغسا يتقدم . . بينما تفرى يجرى كالمحموم باحثاً عن حل . . الحشود الهائلة التى أقام صفوفها لم تستطع وقف الزحف الطاغى . . المدافع والبنادق

والقنابل لم تعد تجدى نفعاً . . إنها تقتل أو تجرح بعض الرجال، لكن الزحف لا يتوقف . . . الأجراس تدق فى ذعر مجنون داعية الشعب للجهاد المقدس ضد غوغسا ، وإياسو السجين وزوديتو الماكرة . . لا فائدة . . إن تفرى لابد أن يجد حلاً سريعاً حاسماً . . وهرول إلى أصدقائه الفرنسيين .

ـ « الحل . . الحل . . إن العاصمة ستحاصر عن قريب ، وسيعود إياسو . . إياسو أيها الأصدقاء خصمكم اللدود . . »

قال القنصل الفرنسى :

ـ « نعلم ذلك . . لكن هذه مسألة داخلية . . »

ـ « بل مشكلة المسيحية فى كل مكان وزمان . . »

ـ « يا تفرى هذا الزحف لن يوقفه إلا شيء واحد . . »

قال تفرى فى لهفة :

ـ « ما هو ياسيدى ؟؟»

ـ« سلاح الطيران الفرنسى . . »

ـ « ما الذى يمنع من استعماله . . »

ـ« ذلك مشكلة كبرى يا تفرى . . نحن نعطيك المال والسلاح والخبرات ، أما أن نشترك بقواتنا علانية ، فهذا قد يثير

شعبكم ، ويلصق بك التهم شخصياً ، فضلاً عن أن الدول الأخرى قد تعتب علينا . . »

قال تفرى :

ـ « أنتم منا ونحن منكم ، إن عودة إياسو مأساة عالمية . . ثم ما هو الشعب ؟؟ إنه يؤيد المنتصر دائماً ، لن يتكلم عن اشتراككم وطيرانكم بعد أن ينهزم غوغسا وإياسو . . إننى أعرف شعبى جيداً . . وأعرف الوسيلة التى أسكته بها ، إن انتصارنا فى هذه المعركة سينهى كل معارضة إلى الأبد . . استحلفكم بالله أيها السادة أن تصدروا أوامركم بتحرك الطيران الفرنسى . . إنه الحل الوحيد . . »

لم يمانع الفرنسيون فى ذلك ، لكن لابد أن يكون لذلك ثمنه ، مزيد من القواعد للقوات الفرنسية ، ومزيد من التعاقدات والتجارة والاتفاقيات الثقافية ، مزيد من المبشرين والبعثات الفنية والعسكرية والاستثمارات . . . وأشياء كثيرة أخرى طلبها الفرنسيون . . وتفرى يقبل . . إنه يبيع نفسه ووطنه وخيرات وطنه كى يسحق غوغسا وإياسو لكى يبقى ولياً للعهد . . وقائداً عاماً للجيش . . فليبق تفرى ولتذهب الكرامة والغيرة الوطنية والاستقلال والحرية إلى الجحيم . .

***

فى أقليم « أسـمـرة» ، فى عـام 1930 ، وقـوات الشـعب وغـوغسـا يسـحقـون بأقـدامهم فلول تفرى ، ظهرت فى الجـو الطائرات الفرنسية بقيادة القائد الفرنسى « أندريه مايبه » . . إنها أول معركة تظهر فيها الطائرات فى سماء الحبشة ، وانهالت المتفجرات الفرنسية على الحشود المنتصرة المتقدمة ، وأدار غوغسا ورجاله رؤوسهم باحثين عن الموت المفاجئ ، كانت السماء ترعد ، واللهب والدخان والغبار يملأ الجو ، وتلفت غوغسا حواليه، فوجد رجاله يسقطون بالمئات . . لم يكن تفرى وحده . . جاء ومعه الطائرات الفرنسية تسحق مقاومة شعبه . . إنه العار . . لقد ضاعت الحبشة، وضاع مجدها . . لتذهب كل المعانى والقيم الجميلة إلى الجحيم ، وليبق الخائن الأوحد تفرى . . .

***

أحاط الخونة « بغوغسا » ثم أمسكوا به . . .

وقدم تفرى كعادته .

ـ « أيها المخدوع ، أو لم يكن يكفيك أنك زوج الامبراطورة وحاكماً لمقاطعة ، ماذا كنت تريد ؟ »

قال غوغسا المرهق الجريح :

ـ « أردت أن ينتصر الحق ، وتعود الحرية ، ويذهب

المستعمرون إلى بلادهم ، ويعود إياسو صاحب الحق الشرعى إلى عرشه . . »

ـ « لم تزل كالعهد بك يا غوغسا قصير النظر أرعن التصرفات . . »

ـ « أنت لم تنتصر يا تفرى . . »

قال تفرى وهو يقهقه :

ـ « وأنت ؟؟ هل تضع على جبينك أكاليل الغار؟؟»

ـ « بل انتصرت الطائرات . . انتصر الفرنسيون حينما رموا بالنيران على الثوار من شعبنا العظيم . . هؤلاء المرتزقة لا يحاربون بلا قيد . . أنت تعرف يا تفرى الخائن الثمن الذى قدمته لهم . . لقد قدمت ـ وستقدم لهم دائماً ـ الكثير من كرامة شعبك وحرياته . . اذهب ملعوناً . . »

ثم بصق فى وجهه ، فارتعدت فرائص تفرى ، وساد الشحوب وجهه وصرخ كمجنون ، وقال فى حنق :

ـ « هذه البصقة ستكلفك حياتك . . »

والتفت تفرى إلى جنوده قائلاً :

ـ « اذبحوه كما تذبح الشاة . . . وهاتوا رأسه كى أقدمها هدية للامبراطورة المسكينة زوديتو . . »

ومات غوغسا مذبوحاً . . وألقيت رأسه عند قدمى تفرى .

وفى اليوم التالى أعلن « تفرى » وفاة الامبراطورة زوديتو . . لقدماتت بالسم . . الطريقة المفضلة لدى تفرى . .

وأعلن تفرى نفسه على الفور « امبراطوراً للحبشة » باسم « هيلاسيلاسى » سبط يهوذا ، وظل الله على الأرض . . .

وبقى إياسو الطيب فى سجنه البعيد ، يحيا فى الصمت والظلام ، لا يكف لسانه عن ذكر الله . . . .



عـشـرة أعـوام ونصف . . يا لهـا من مـدة طويلة . . بين القضبان الصدئة القاسية ، والجدران الصلدة التى تآكل طلاؤها القديم ، وأوجه السجناء الغلاظ الصامتين ، وعدم معرفة أى شيء عما يجرى خارج الأسوار اللهم إلا الشيء القليل . . وبُعْد عن الأهل والأصدقاء وأبناء الشعب المسكين . . عشرة أعوام ونصف قضاها إياسو بعيداً عن المعارك والحركة والدعوة لمبادئه . . عشرة أعوام ونصف يمرح فيها « تفرى » ويدبر مكائده، ويسحق المعانى النبيلة ، ويقرب المنافقين والنفعيين والخونة ، ويحارب الأصلاء والأحرار ، ويصب حقده الأسود الرهيب على رؤوس المسلمين وعلمائهم ، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون ، وأنهم قد أحبو إياسو وساروا وراءه فى طريق الخير والحب والسلام . .

لقد مات أبوه . . وماتت مالفن . . وكذلك خالته الامبراطورة زوديتو وزوجها غوغسا ، وذبح عشرات الألوف من الرجال المخلصين الأوفياء، إن إياسو يؤمن بالله وبشعبه، وكان يعلق كثيراً من الآمال على انتفاضة غوغسا ،

لكن الفرنسيين أخلوا بميزان القوى ، واستطاعت طائراتهم أن تحول نصر الأمة إلى هزيمة ، وأن تجعل من تفرى امبراطوراً . . باسم « هيلاسيلاسى » . . ظل الله فى الأرض . . وما هو فى الحقيقة إلا ظل للشيطان . .

ظل أسود رهيب يغطى سماء الحبشة ، فيحيل هضابها وغاباتها ومراعيها ومدنها وقراها إلى ظلام دامس . . وحياتها إلى ليل طويل أليم ، مضطرب الأحلام ، ملئ بالهول والأشباح . . إن الظل الأسود الرهيب يبسط ستائره الداكنة الثقيلة فوق القلوب والعقول ، والإنسان والحيوان .

ودمعت عينا « إياسو » . . أين النصر ؟؟ وأين إرادة الشعب المغلوب على أمره ؟ ولماذا تسمح الأقدار لهذا الظل الأسود أن يوشح الوجود ، ويعتصر قلوب البشر ؟! إن همسات من يأس تتردد فى روح إياسو المتعب المكدود، لقد طال الصبر والانتظار ، وازداد عدد الضحايا ، وهيلاسيلاسى اللعين ، يدوس الأشلاء والجماجم والمقدسات ، ويصعد . . ويصعد إلى أعلى . . ورؤوس الشعب الذليل تنحنى ، وتعفر جباهها بتراب نعليه . . لقد ماتت المعانى الشريفة فى قلب البشر لطول القهر والعذاب والحرمان . . فهل استكان الناس للذل ، ورضخوا لليأس والخوف ، ولم يعد هناك أمل ، أتلك

هى النهاية ؟؟ مستحيل أن يحدث ذلك ، لقد طال الأسى والعذاب ، هل من الضرورى أن يطول بقاء الأشقياء ، وأن يصعدوا القمة تحيط بهم الخبائث والموبقات ؟؟ إن إياسويعرف أن للظلم نهاية . . لكن قلب الإنسان المحترق بين حناياه يتمرد . . يثور . . يدعو الله فى حرارة وتشبث ، أيظل إياسو طول عمره رهين محبسه ؟؟ إنه شيء أفظع من الموت ، لكَمْ يود أن يخرج ، وأن يلقى منيته فى ميدان جهاد حاد عاصف . هو يعلم أن الصبر على بلاء السجن جهاد . . . لكن لحظات التعاسة التى تمر به لحظات قاسية بشعة ، إن ساعة منها تساوى عمراً بأكمله ، وإياسو يعترف أنه فى بعض الأحيان يتأرجح بين الشك واليقين ، ويتبرم بالدنيا والحياة ، ويتمنى ألا يكون قد جاء إلى هذه الحياة القاسية المريرة ، وقد يصل شكه وتمرده إلى درجة العتاب للأقدار ، وسرعان ما يثوب إياسو إلى رشده ، ويذرف دموع الندم ، ويهتف من أعماقه « غفرانك يا رب . . فلترحم ضعفى . . إننى إنسان محدود الطاقة . . هكذا خلقتنى . . لكن حياة السجن ميتة لا طعم لها . . إننى أقرأ القرآن فينشرح قلبى ، ويتسع ضيق السجن ، ويتحول إلى جنة وارفة الظلال ، وتفيض روحى بالأمل والإيمان . . لكن الأفكار يا إلهى قد تشتط بى . وتجرنى إلى الضحايا . . أبى الذى قتلوه ،

ومالفن المسكينة التى حاولت إقناعى ذات يوم بانفصالها عن هذا الشـقى فـرفـضتُ . . . ورفـاق الجـهـاد فى الأغـوار والمزارع والجبال . . ثم أفكرفى هيلاسيلاسى . . وقد انتصر بخبائثه ومكائده الشيطانية . . ماذا أقول ؟؟ إن جسدى أحياناً يلتهب بالثورة والحقد ، لكنى أشعر بعجزى . . إن العجز قيد ثقيل يشدنى إلى الأرض وعذابها، وينهك قواى ، فتعصف الحسرة بروحى ، وتحيل ليلى إلى أرق ،و آمالى إلى أحزان وإيمانى إلى عجز مرير . . ماأتعس العاجزين !! إننى أمد بصرى فلا أرى إلا الأسوار العالية ،وطيوراً تمرح فى السماء . . ما أسعد الطيور!! ووجوه الحراس المكتئبة التى قد خاصمت الضحك ، ونسيت المسامرة . . إنهم يؤدون واجبهم فى جمود وجفاف . . هل أصبح الشعب على هذه الصورة الميتة المؤسفة؟؟»

فى صباح باكر ، سمع إياسو وقع أقدام الجندى خارج الزنزانة، إن إياسو قد تعوَّد على ذلك طوال السنين الفائتة ، ها هو الطاهى يحضر طعامه الردىء ، والذى يذكره دائماً بأيام خلت . . القصر . . الوصيفات . . الطاهى النظيف الثياب ، وألوان الطعام المختلفة . . لم يكن كل ذلك يلفت نظره من قبل . . لكن حياة السجن وسماتها الخاصة تجعله يعقد المقارنات، ويستعيد الذكريات . .

وفتح الباب . نفس الوجه الجامد الذى يراه كل صباح . ونفس الكلمة :

ـ « خذ طعامك»

ويفاجأ إياسو وهو يقضم الرغيف ، بورقة مدسوسة فيه فيخطفها فى لهفة . كلمات قصار ، قد شدَّت أعصابه ، وجعلت الدم يتدفق فى عروقه قوياً هادراً ، إن الحياة تدب فى هيكله المهدم من جديد ، هذا هو صوت الشعب ، إنه لم يمت ، لم يزل حياً يصارع عوامل الغدر والفناء والذل . . إنه يعرف صوت شعبه :

ـ « إياسو . . كن متيقظاً ، وعلى أهبة الاستعداد قبل الفجر بحوالى الساعة . . لقد حانت ساعة خلاصك من القيود»

تلك هى الكلمات التى قرأها إياسو . . لقد رقص قلبه فى صدره، لسوف يعود إلى الحياة من جديد ، ويثب فوق السفوح حاملاً مدفعه ، يتغنى بالحرية والجهاد ، ويقود الجموع إلى معارك البطولة والخلاص ، ويبعث الرعب والغيظ فى قلب هيلاسيلاسى الطاغية . . الظل الأسود المقيت . . مرحباً بليالى النضال . . وتمتم إياسو « سامحنى يا إلهى . . إن اليأس كفر ، والشك موت ، لقد آمنت أن التغيير طبيعة الرجود . . الليل يعقبه النهار ، إنها بديهيات ، لكن عقولنا المثقلة بالمتاعب

والاضطهاد الطويل كثيراً ما تنسى البديهيات . . ترى من هؤلاء الرجال الذين يركبون الأخطار، ويضحون بأنفسهم من أجلى؟؟ إنهم لا ينسون . . هذا شيء رائع . . مرحباً بليالى النضال . . وبصحبة الأحرار . . »

وعاد إياسو يفكر بعد فترة ، ألا يمكن أن تكون هذه ألعوبة جديدة من ألاعيب هيلاسيلاسى ؟؟ إن جعبته لا تنفد من المكر والخداع والحيل الشيطانية ، لكن لماذا يلجأ لكل هذه الأساليب الملتوية ؟؟ إنه يستطيع أن يقتلنى بإشارة من يده ، هذا ما يحيرنى لماذا يتركنى حتى الآن ؟؟ هل وراء ذلك سر لاأعرفه ؟؟ آه . . إن حياتى قصة دامية مشحونة بالأحداث والذكريات . . كانت بنت حاكم هرر أميرة فاتنة الحسن، بارعة الذكاء ، سامية الخلق . . عقلها قادر على أن يسوس أمة بأسرها . . عندما تزوجتها شعرت أن روحى قد اخضوضرت وأشرقت بالزهر والياسمين والأريج العطر . . كانت حياتى معها على الرغم من قصرها نغماً حالماً فذاً . . . لماذا أتذكرها الآن يا إلهى ، إن صورتها كلما خطرت على بالى ، عاد إلىّ الماضى الجميل مجسماً نابضاً بالحياة . . يخيل إلىّ عندما أذكرها أننى على وشك أن أدق الجدران بقبضتى ورأسى وقدمى لأشق لى طريقاً إليها . . إلى الحياة . . إلى الناس . . إن كل ذلك شيء واحد . .

هى والحياة والناس ، واللافتات التى تحمل شعاراتى وأمنياتى الغالية . . كثيراً ما تمنيت أن أموت فلاحاً يشق الأرض بفأسه ، ويرعى الأبقار ، ويمشى حافى القدمين ، لا يعلم عن الدنيا إلا قريته وأبقاره ومزارعه المحدودة » . .

ليته لم يكن امبراطوراً فى يوم من الأيام . . أشياء كثيرة تتوارد على ذهنه فى هذه الأوقات الحرجة الحاسمة ، لكن لماذا يفكر فى كل هذا الآن . . إن الرجال سيأتون بعد منتصف الليل . . سيشقون السياج الصلد الذى أقامه « هيلاسيلاسى »حول السجن . . وسيختطفون فارس الأمل إياسو . . ويبدأ النضال من جديد . . فلتصمت أجراس البغى يا هيلاسيلاسى اللعين . . وليسقط عهد الثعالب والذئاب ، ولتسقط سياسة الوحوش الضارية . . ولتشدوا أغانى النضال على الروابى والسهول . . والله أكبر . . لسوف يأتى الرفاق ، ولسوف أخرج للشارع والحياة والناس، ستنقلب الحبشة رأساً على عقب، وستعود معركة الأفكار من جديد . . . ستشتعل العقول بحثاً عن الحقيقة . . صلى الله عليك يا راعى الغنم . . كيف صارعت الطغيان وأنت فى حفنة صغيرة مضطهدة من الرجال الصابرين ، وحولكم الألوف يحملون الغدر والحراب والمكيدة . . صلى الله عليك يا محمد . . أيها المثل الأعلى . .

الباب يُفتح ، وأيد حانية تأخذ بذراع إياسو ، ويهرولون به إلى الخارج ، الحراس المقيدون بالحبال ، يزمجرون وقد كممت أفواههم ، ونُحِّيت عنهم أسلحتهم . ويعبر إياسو والرجال بوابة السجن الضخمة ، ويمتطون الجياد وينطلقون إلي الفضاء العريض ، والنجوم تلمع فى كبد السماء ، ونسمات رطبة تلامس الوجوه المحتقنة .

ـ « من أنتم ؟؟ »

قالها إياسو مراراً دون أن يجيبه أحد ، ولما بلغ الرجال مأمنهم ، وأماطوا اللثام عن وجوههم ، قال أحدهم :

ـ« نحن رجالك . . جئنا لننقذك من براثن الوحش الآدمى . . نحن نفكر وندبر منذ سنوات . . إن الرجل الذى أحب شعبه ، وأحبه شعبه ، لا يصح أن يبقى خلف القضبان رهينة فى يد الشيطان . . نحن رجالك يا إياسو الحبيب . . »

قال إياسو وهو يدقق النظر فى وجوههم :

ـ « لكنى لا أعرف أحداً منكم»

ـ « نحن نعرفك . . يا حامل لواء الحرية والتسامح والعدل على أرضنا الطاهرة . . حاربنا إلى جوارك . . ورأينا فيك القائد الهمام ، والأخ الرحيم ، والإنسان صاحب القلب الكبير . . »

هز إياسو رأسه في رضا وقال :

ـ « أجل . . يخيل إليَّ أنني رأيت هذه الوجوه من قبل . . لكأني أعرفكم من سنين طويلة . . »

قال أحد الرجال :

ـ « يجب أن نستريح أولاً . . إن لنا معك حديثاً طويلاً . . لا بد أن نشعل الثورة من جديد . . لن يستطيع «هيلاسيلاسى» أن يلاحقنا بالطائرات الفرنسية مرة أخرى . . لسوف نشن عليه حرب العصابات ، سنكبده الكثير من الجهد والعنت ، ونحيل أمنه إلى خوف ، وسنذل كبرياءه ، ونعطيه درساً لن ينساه . . هذا المأفون ما زال يقتل الأبرياء ، ويدمر قرى المسلمين عن آخرها ، ويستولى على ماشيتهم ، ويطردهم من أراضيهم ، ويهدم المساجد ، ليقيم الكنائس على أنقاضها باسم الرب يسوع . . »

وتلفَّت إياسو حواليه ، ما أحلى الحرية !!! لكأن الوجود بكل ما فيه كأس شهية لامست شفتي إياسو الظامئ ، إنه يريد أن يعانق كل شيء الناس والأشجار والجبال والحيوانات . . إن فرحة غامرة تملأ قلبه ، لم يعد يشعر بأثقال عنيدة تشده إلى الأرض ، إنه يخفّ ويخفّ . . حتى ليبدو أنه يستطيع الطيران

قرب السحاب ! ما أحلى الحرية . . إنه لا يشعر بجوع ، وليس لديه رغبة فى النوم ، يريد إياسو أن يعانق هؤلاء الرجال ، وأن يتحدثاً معهم حديثاًطويلاً لا ينتهى . . وهو يشعر برغبة جارفة فى رؤية الأطفال . . لكَمَ يحب هذه الطيور الحبيبة . . هؤلاء الأطفال عيونهم الصغيرة تنطق بالبراءة، وابتساماتهم الصادقة تعبر عن الطهر والوداعة . ويريد أن يرى الفلاحين منحدرين نحو حقولهم عند مطلع الشمس يسوقون أغنامهم وأبقارهم إلى الزروع الخضر . . . يريد أن يرى الضجيج والحركة فى الشوارع والطرقات ، ويسمع نداءات الباعة ومشاجراتهم . . يريد أن يرى الحياة بكل ما فيها من ألوان . . لعنة الله علي السجن . . إنه حرمان بل موت بشع . . إنه ليل طويل يطحنه العذاب والأسى . .

***

انقلبت العاصمة رأساً على عقب ، وأرغى هيلاسيلاسى وأزبد ، وأصدر أمره ، بالقبض على الحراس « المقبوض عليهم» وقرر قتل من تسبب فى فرار إياسو ، ورصد المكافآت الضخمة لمن يأتى به حياً أو ميتاً . . وساق آلاف الجنود لمحاصرة المنطقة التى نزل بها ، وأخذ الجنود يضيقون الحصار يوماً بعد يوم ، ويسحقون فى طريقهم القرى والكفور ، ويبذرون الرعب فى كل مكان . . .

وها هو إياسو ـ وقد شعر بأنه سيقع فى يد أعدائه ـ يركب جواده وينطلق إلى بعيد ، إنه لا يريد أن يجر الرجال معه إلى هاوية السجن السحيقة ، وعند أحد المنافذ الجبلية أحاطت به قوات هيلاسيلاسى من كل جانب . . .

عادت القيود . . .

وعادت الأسوار العالية ، والقضبان الصدئة . .

وأوجه السجناء القساة أولئك الذين خاصمت وجوههم البسمة ، ونسيت حلاوة السمر والمرح . .

لم يعد للحياة معنى !! أيضع حداً لحياته بيديه ؟؟ حاشا لله !! ما هكذا يكون المؤمنون بالله وبمحمد عليه الصلاة والسلام . لسوف يعود الى سجنه الجديد يحمل فى قلبه الأمل، ويغذى روحه بالإيمان ، ويقطع الوقت الطويل فى الدعاء والقراءة وذكر الله . . لقد نذر نفسه لله ، ومن ثم فلم يعد إياسو ملكاً لنفسه .

عاد الظلام والليالى الطويلة الحالكة السواد .

مضت تلك الفترة القصيرة التى قضاها فى الخارج بعد هروبه مرور الحلم . . هل كان ما حدث حقيقة ؟؟

قال له السجان :

ـ « تصور أيها الامبراطور المسكين . . . أن الناس فى جميع أنحاء الحبشة لا يصدقون أن هيلاسيلاسى قد استطاع القبض عليك وإعادتك إلى السجن ، إنهم يقولون أنك لم تزل تجمع الرجال ، وتُعد السلاح ، وتنتقل من مكان لمكان استعداداً للمعركة الفاصلة . . »

وقهقه فى سخرية :

ـ « أنا نفسى كدت أصدق مزاعمهم مع أنك معى فى السجن . . إننى آتى كل يوم لأنظر إلى وجهك كى أتأكد أنك أنت إياسو ، والناس لا يصدقوننى . . »

واقترب السجان منه ، وأمسك بكتفه ، وهتف :

ـ « قل لى بحق العذراء هل أنت إياسو المسلم ؟؟»

ابتسم إياسو :

ـ « أنا إياسو . . أنا لست أسطورة . . »

ـ « أكاد لا أصدقك . . إن ثورات كثيرة اندلعت فى كل مكان . . الناس فى بلاد كثيرة ينتظرون قدومك . . . لكنك هنا ، وسيطول انتظارهم ، ولن يلتقوا بك أبداً . . »

شرد إياسو بفكره إلى بعيد وقال :

ـ« أنا هنا . . وأنا هناك . . ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تمنع لقائى معهم . . الأرواح جنود مجندة . . »

تلفت الحارس فى ذعر وقال :

ـ « هنا وهناك ؟؟ كيف ؟؟ جيش من الأرواح ؟؟ كيف . . لسوف أجن . . »

وفر الجندى مذعوراً ، وهو يضرب كفاً بكف ، وبعد لحظة عاد الجندى ليقول :

ـ « أى إياسو الطيب . . لا تخبر أحداً أننى تحدثت معك . . الأوامر صريحة ، إن الحارس الذى يتحدث معك يكون مصيره العذاب الأليم والطرد من الخدمة ، بالله لا تخبر أحداً بذلك . . لم أستطع أن أمسك لسانى ، إن ما يقال عنك فى طول البلاد وعرضها قد ملأنى بالفضول الذى لا يقاوم . . »

وتمتم إياسو وهو يهز رأسه :

ـ« أتخشون الناس ، والله أحق أن تخشوه ؟؟»



فى عام **1935** م ، موسولينى يدق أبواب الحبشة بقبضته الحديدية ، والقوات الإيطالية تزحف نحو الحدود مهددة مُتوعدة ، وهيلاسيلاسى يستنجد بالحلفاء ، لقد حانت لحظة الانتقام الإلهى . . هيلاسيلاسى يحشد ربع مليون جندى . . الشعب يهتف « إياسو . . إياسو » إنه رجل الساعة . . لقد استطاع الاستعمار أن يجعل من الامبراطور الخائن عبداً له ! وهو بدوره أحال جيشه إلى جيش من العبيد . . إن الإيطاليين يزحفون ويبيدون جنود هيلاسيلاسى عن آخرهم . .

لقد فقد هيلاسيلاسى جيشه . . .

وفقد ثقة الشعب منذ زمن بعيد . .

المعذبون الضائعون الأذلاء لا يستطيعون دفع العدوان . .

هيلاسيلاسى يتوثب كفأر مذعور . .

لقد ضاع كل شيء . . وهدير كالرعد يصم الآذان «إياسو . . إياسو » . . . ويبتسم هيلاسيلاسى ابتسامته الصفراء الخبيثة، تلك التى تكشف عن أنياب الغدر والمكر والوحشية . .

وإياسو سجين فى حصن « غراموليتا »يتسقط الأخبار المحزنة ، الحراس يركعون حوله ، ويسكبون عبرات الندم . .

ـ « أى إياسو الحبيب . . لقد ضعنا . . ضاع كل شيء . . والطليان قد سحقوا كل مقاومة . . إياسو أيها الرجل الطيب . . إن الشعب كله يهتف باسمك . والطليان يرحبون بك . . لقد حانت ساعة الخلاص . . فاذكرنا إذا ما عدت إلى العاصمة مكللاً بالغار ، واذكرنا إذا ما فرشوا لك الطريق بالورود والرياحين . . ودقت الطبول إيذاناً بانتهاء الليل الطويل . . »

بكى إياسو ، وتمتم فى أسى :

ـ « أأعود إلى العرش لكى أكون ألعوبة فى أيدى الطليان؟؟ما الفرق إذن بينى وبين هيلاسيلاسى الذى حكم فى ظل الحراب الإنجليزية والفرنسية !! لو قُرر لى الخروج ، فلن أخرج إلى قصر الامبراطورية . . إن رجالى هناك فوق السفوح وفى الوديان والمزارع الخضر . . ومن هناك نحمل السلاح لنخلص البلاد من العدو الجديد . . »

***

فى ليلة سوداء عاصفة ، يشوبها الحزن واليأس المرير ، قال هيلاسيلاسى :

ـ « أيها الرفاق الأعزاء ، لقد فقدنا كل شيء ، واحتل الإيطاليون جزءاً كبيراً من الحبشة ، لقد خسرنا الحرب . . ولا أستطيع البقاء بعد ذلك ، كيف أبقى ؟؟ إن الشعب يشعر نحوى بمشاعر غير ودية ، والطليان حاقدون علىّ لتعاونى مع الإنجليز والفرنسيين . . إذا بقيت فسأساق إلى السجن ، وسيخرج إياسو ليتوج امبراطوراً على الحبشة من جديد . . لا . . لن أقبل ذلك . . لقد قررت الهروب إلى إنجلترا . . »

وساد الحجرة صمت رهيب . .

عاد يقول :

ـ « لكن هناك مهمة خاصة لا بد من أدائها فى مكان ما » .

ـ « أين ؟؟ » قالها أحد الرجال مستفسراً .

رد « هيلاسيلاسى » فى هدوء :

ـ « فى غرامولیتا . . »

ـ« غرامولیتا؟؟ ليس لنا فيها شيء ، إنه حصن قديم لا قيمة له . . »

سدد إليه « هيلاسيلاسى » نظرات ثاقبة وقال :

ـ « لنا فيها إياسو . . »

عندما وصل « هيلاسيلاسى » إلى غراموليتا فى موكب مسلح ضخم ، ذعر الناس والحراس ، وصاحوا فى فزع « الامبراطور . . الامبراطور» لم يضيع هيلاسيلاسى الوقت سدى ، وقصد لتوه إلى حيث يقيم إياسو :

ـ « ها قد التقينا يا إياسو من جديد . . »

قال إياسو :

ـ « لقد ضيعت كرامة الأمة ، وسحقت استقلالها بجهلك »

ـ « لا يصح أن تكلمنى بهذه اللهجة يا صهرى القديم . . إنه اللقاء الأخير بيننا ، ألا تعلم أنى قد عزمت على الرحيل إلى إنجلترا ؟؟ إن الطليان سيأتون إلى هنا عن قريب . . »

ـ « وما شأنى بذلك كله . . ؟»

ـ « أنت الامبراطور المرتقب يا إياسو . . »

ـ « بل إننى خادم الشعب . . ولا أفكر إلا فى حريته والدفاع عنها بكل ما أملك . . ؟

ـ « لن تستطيع ذلك يا إياسو . . »

ـ « لماذا ؟؟ إننى لا أرهب قوة الإيطاليين . . »

ـ « لن تستطيع ذلك لسبب آخر . . »

-« ما هو ؟؟ »

-« لقد أصدرت حكمى عليك بالإعدام . . لن تعود إلى القصر امبراطوراً . . »

قال إياسو باسماً :

-« أنا لا يهمنى الموت ، ولا أفكر فيه ، وإنما أفكر فى المصير التعس الذى آلت إليه بلادنا . . أفكر فى حماقتك التى أوردتنا موارد الضياع ، ، إن كنت يا هيلاسيلاسى تفر من الموت وتترك شعبك المسكين يواجه الكارثة وحده ، فأنا لن أفر . . ولن أستسلم للطليان ، ولن أقبل العرش تحت وصايتهم . . سأحارب . . الموت أو النصر . . »

قال هيلاسيلاسى فى حقد :

-« بل الموت . . »

وأشار بيده . .

فانقض خمسة من الرجال الأشداء وأطبقوا على عنق إياسو المسكين . . كان إياسو يبتسم برغم احتقان وجهه ، وجحوظ عينيه ، لم يتألم أو يتململ ، وصرخ هيلاسيلاسى كالمجنون :

« أطفئوا هذه الابتسامة من فوق شفتيه . . شجوا ذلك الجبين حتى يغرق الدم وجهه . . »

قال أحد الرجال وهو يتصبب عرقاً :

ـ « لقد مات يا جلالة الامبراطور . . »

ـ « اقتلوه مرة ثانية . . وثالثة . . ورابعة . . أزيلوا جثته من أمامى . . خذوها إلى قبر مجهول بعيد . . بعيد جداً . . لا يعرفه أحد . . هذه الأسطورة السمجة ، يجب أن تختفى إلى الأبد ، إن تخلصى من هذا الكابوس هو الذى خفف عنى مرارة الهزيمة التى أُصبنا بها أمام الطليان . . هذا المجنون إياسو يبتسم . . إنه لم يزل يبتسم . . كيف مع أنه ميت ؟؟ لقد سمعته ينطق بالشهادتين . . كان شجاعاً أمام الموت . . كنت أظنه سيهوى إلى حذائى ليقبِّله ويسكب فوقه العبرات . . حسبته سيضرع ويلتمس العفو . . لكنه لقى حتفه وهو يبتسم . . عفِّروا وجهه بالتراب لعل هذه الابتسامة تختفى . . »

وأخذ « هيلاسيلاسى » يضرب الجثة بحذائه . ثم يتحول إلى من معه ويكيل لهم السباب واللكمات والركلات ، وهم حائرون لا يدرون ماذا يفعلون . .

وتمتم بعد أن شعر بإعياء شديد :

ـ « الآن ارتاحت نفسى ، وشفيت غليلى . . »

ثم زمَّ هيلاسيلاسى شفتيه ، وانسكبت الدموع على الرغم منه . . قال أحد المقربين إليه :

ـ « لماذا تبكى يا صاحب الجلالة؟ »

ـ «لأنى مع كل ذلك أشعر أنى عاجز . . . لقد قتلت إياسو لكنى لم أزل أرهبه . . أشعر أنه يتعالى على ويسخر منى ، وينظر إلىّ وكأنى طفل أحمق يلعب بالنار . . الحقيقة أنه لم يطفئ النار المشتعلة فى قلبى . . . ! ابتسامة وجهه الميت الشاحب توجه إلىَّ سخريات مُرَّة وإهانات بالغة ، إن كلماته الجوفاء المقيتة تفرض نفسها علىَّ ، لم تزل تطن فى رأسى . . »

ـ «لقد مات وانتهى الأمر . . . »

ـ « أتظن أن الأمر انتهى فعلاً ؟! »

ـ « بالتأكيد يا مولاى . . »

ـ « إننى أشك فى ذلك . . سيبكى الناس من أجله كما لم يبكوا من أجل سقوط الحبشة . وسيتغنون باسمه فى كل مكان . . هؤلاء البلهاء العاطفيون ما زالوا يحبونه برغم السنين الطويلة التى مرت . .

إن الأمر لن ينته بعد . . إننى أهرب إلى إنجلترا ، وإيـاسو ـ على الرغم من أنه جثة ـ سيبقى هنا . . سيقولون عنه أنه بطل . لأنه لم يهرب . . »

ابتسم أحد الرجال وقال :

ـ « لقد مات . . هرب من الدنيا كلية . . إنك تجسم الأمور . . »

أفاق «هيلاسيلاسى» إلى نفسه وقال :

ـ « إننى أشعر بإرهاق شديد ، لم أنم طوال ليلة أمس . . هيا بنا . . ».

***

عندما أعلن نبأ موت إياسو ، هرعت الجموع إلى الشوارع . . كان يوماً مشهوداً . . « هيلاسيلاسى » يبحث عن مخرج كى يهرب ، والملايين تتجه إلى حصن غراموليتا باحثة عن قبر الشهيد العظيم . . الأسطورة الخالدة على الشفاه . .

هرب الثعلب والعار وراءه

وإياسو ...

لم يزل يشدو بحق الضائعين ..

الرياض الخضر تبكى همته ..

والنداء الحر فى سفح الجبل

ومواويل الرجال ...

إنهم يبكون فى الليل الطويل

ليل «هيلاسيلاسى» الخائن العربيد ..

ذلك الظل الرهيب ...

وحكايات قديمة ...

وحكايات جديدة...

وأساطير شجية ..

عن فتى الأحراش .. عن نور الحياة

عن إياسو صاحب القلب الكبير ..

التحيات إليك ..

يا أبا الأمة ..

يا ربيع الحب .. يا إياسو ..

هرب الثعلب والعار وراءه..

صفحة سوداء ، فالليل البهيم ..

مثل أوحال الخطيئة ..

هرب الثعلب والعار وراءه ..

فلك المجد إياسو ..

يا أبا الشعب الجريح ..

يا صلاة المتعبين ..

يا أماني التائهين ..

يا ربيع الحب ..

يا رمز الخلاص ..

***

مطابع الصقر
تليفون : ٤١٢٧٧٧ - ٠١٥/٤١٢٥٥٥